

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

رجال وذئاب

Men and Wolves

Dr. Naguib Al Keilany



روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا









دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 00202239377
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy



د. نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠٣٣٤/٢٠١٢

الترقيم الدولي:

978-977-255-369-3



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



ابتسم الدكتور «عادل فتوح» فى مرارة، وأخذ يتمتم وحيدًا فى غرفته «بيت الامتيار»، أو سكن الأطباء كما يسميه البعض، كان متعبًا يغالبه النوم، فقد ظل طوال الليل يستقبل الحالات المرضية العاجلة. . إنه يقضى هذا الشهر فى قسم الحوادث أو الطوارئ، منذ أن يذهب إلى القسم فى السابعة مساء وحتى السابعة صباحًا لا يكاد يكف عن العمل، الوجوه التى يراها دائمًا شاحبة. . أو منقبضة، أو ملوثة بالدم. . التأوهات والآهات هى الأغنية التعسة التى تتكرر على سمعه. . فى البداية كان قلبه يبكى مع هؤلاء التعساء المتألمين لكنه بعد أيام أخذ يستقبل الأمر بحياد. . حياد العالم الذى يحلل ويفكر فيها يجب عمله، ثم تحول الحياد إلى برود تام. . كان الحياد يتميز بقدر غير قليل من

القلق. . نعم فهو يبحث عن القرار الصحيح؛ لأن الخوف من التشخيص الخاطئ يزعج المحايدين. . وأخيراً لم يعد يكترث حتى بالخطأ إن حدث؛ لذا فقد أصبح يأكل جيداً، وينام فى أى وقت يلقى بجسده فيه على السرير، ويخرج إلى الأندية، والشوارع، والمقاهى، ودور السينما سعيداً مرحًا دون أن ينغص عليه منغص.

إنه يريد أن يتزوج زميلته الدكتورة «فضيلة علام»، كان يرى فيها الجمال الذى ينشده، والأسرة العريقة التى تعوضه عن أصله المتواضع، والثراء الذى بدونه لا يستطيع أن يصعد، لكن الذى آلمه أشد الألم هو ما يراه فى تصرفاتها من هدوء وتؤدة، إنه يقبل عليها بجماع نفسه، عندما يحادثها تنطلق كلماته فى حماسة وحرارة، ويسارع برسم صورة نابضة بالسعادة لمستقبلهما معًا، وعندما ترد عليه تلطمه عباراتها الوقورة المتأنية، وخاصة عندما تشير إلى أن الزواج ليس أمرًا سهلاً، وأنها لم تعرفه بعد حق المعرفة، وأنه لا وجه للعجلة ويصرخ وهو يلقى بجسده على سريره:

- «من تظن نفسها هذه المغرورة؟؟ أنا أول الدفعة . . عبقريتى يتحدث عنها الجميع . . وليس هناك أى عيب فى سلوكى أو شكلى . . إننى لا أستطيع أن أفهم مغزى سلوكها معى . . إذا حاولت لمس يدها سحبتها غاضبة . . وإذا انتقدت لبسها للحجاب بدا الاشمئزاز والضيق على وجهها . . هل معنى ذلك أنها . . لا . . لا مستحيل، لا يمكن أن تحب غيرى، إننى أراقبها منذ سنوات . . والزملاء فى القصر العينى لا يرحمون . . لو أن لها علاقة بإنسان آخر لانتشر الخبر، وفاحت الرائحة . . رائحة الحب مثل رائحة «الفورمالين» والأدوية الأخرى التى تزكم الأنوف . . » .

وأخذ عادل- على الرغم من الإرهاق الذى ألمَّ به- يستعيد لقطات من لقاءاتهما معًا، محاولاً أن يستشف ما وراء تصرفاتها وكلماتها . . إنه لم يزل يتذكر ذلك الكتاب الذي كانت تقرأ فيه ذات يوم، قال لها :

- «ماذا تقرأين؟؟» .

- «قصة . . » .

- «أوه . . هذا مضيعة للوقت يا فضيلة . . » .

- «إنه فن رفيع . . ألا تحب أن تقرأها؟؟» .

ضحك فى سخرية، وقال :

- «إنها مضيعة للوقت . . الروايات للمراهقين والمراهقات . . ونحن كبرنا . . كبرنا يا فضيلة . . ويجب أن نواجه الواقع بدلاً من الغرق فى هذه الأوهام . . » .

- «أفهم من ذلك أنك لا تقرأ شيئًا فى الأدب؟؟» .

- «عشقى الأول كتب الجراحة . . » .

هو يتذكر أنها نظرت إليه فى استغراب، حاول أن يتجاهل نظرتها، واستطرد :

- «إننى لا أجد ما يستحق أن يقرأ فى هذه الأيام . . حتى الصحف لا أقرأ غير العناوين البارزة . . والواقع أنه لا يهمنى شىء . . هذا العالم كله عارٍ من الصدق إلا مجالات العلم . . » .

- «هذه حياة جافة لا تطاق يا دكتور عادل» .

كان يؤمن بقضية . . إيمانه راسخ لا يتزعزع ، فالأدب أوهام وشعارات ومخدرات ، والسياسة أكاذيب ووحشية ، والمسرح والسينما تجارة ، والأخلاق من نصيب المستضعفين والفقراء ، والعدالة هى القوة والبطش فى أيدى المحظوظين من ذوى النفوذ ، كان يتكلم بثقة وطلاقة لا تدع مجالاً للشك فى ثقته واقتناعه بما يقول ، لم تصدمها الحقيقة ، كانت متمالكة لأعصابها ، وخاصة أن فى قوله بعض الحق ، على الرغم من نظرته السوداء لكل شىء . .

قالت فى هدوء :

- «والحب؟؟» .

لم يتوقع منها هذا السؤال بالذات ، فقد عهدها متحفظة محتشمة ، لا تستخدم الكلمات الصريحات ذات الظلال والإيحاءات .

تمتم فى ارتباك :

- «الحب؟؟» .

قالت :

- «نعم الحب. . هل هو من سمات الضعفاء، أم من سلعة التجار، أم في قائمة الشعارات؟

قهقه بصوت عال، وهمس في خبث:

- «أنت تعرفين، والحياة بدونه بالغة الصعوبة، وهو ضرورة نفسية وفسيولوجية واجتماعية. . إنه كالطعام والماء والهواء. . أتشكين في ذلك؟؟».

قالت باسمة:

- «ذلك هو التعريف الطبي المادي للحب».

- «هل هناك تعريف آخر؟».

- «ألا تعرف؟؟».

- «أوه. . تعلمين أني لا أؤمن بالرومانسيات. .».

- «لكنها جزء من صميم وجودنا. . لسنا مجرد لحم وعظام ودم. .».

وأدرك عادل- بعد أن انصرفت فضيلة- أنه لم يوفق فيما قال على الرغم من اقتناعه به، كان يؤنب نفسه، لماذا لا

يجاريها فى تصوراتها، ويشبع خيالاتها وأشواقها الروحية . . إنها امرأة فى عنفوان شبابها، وهو يردها مهما كان الثمن، إن زواجه منها حتمية من الحتميات التى يتحدث عنها فلاسفة السياسة، والاقتصاد، والمادية الجدلية، بصراحة يريد جسدها ومالها وتميزها الشخصى والاجتماعى، واللعنة بعد ذلك على كل المبادئ يمينًا ويسارًا . . إن الخداع فى مثل تلك الحالات لباقة . . فن . . تخطيط . . ليس هذا ضعفًا أو انحرافًا . . ماذا سيخسر لو قال لها ما تريد سماعه، وليس ما يعتقده هو؟؟ .

قال لها عندما قابلها فى المرة التالية :

- «الأرض للزارع . .

- والمصنع للصانع . .

- والبيت للساكن . .

- والشجرة للطالع . .

- وأنت يا فضيلة لى وحدى . . » .

ضحكت، وقالت :

- «أنت تمزج الحب بالسياسة . . » .

- «أنا أقرأ فلسفة الثورة، والميثاق، وخطب الرئيس . . » .

- «تقرأ إذن أشياء غير كتب الجراحة . . » .

- «كنت أمزح يا فضيلة . . أنا أقرأ الكثير، لكنى ناقم على الأوضاع . . أنت حبى الوحيد . . » .

- «والجراحة؟؟» .

- «أنت حياتى . . والحياة رحبة تشمل الوجود كله، والآمال والأحلام . . والعلم والفن . . » .

ابتسمت قائلة :

- «أنت فى حالة جيدة اليوم» .

كان فى عجلة من أمره، وهو يخاف المستقبل، ويشك فى الناس، وينظر لكل من حوله وما حوله نظرة عداء، الحقيقة الوحيدة التى يعرفها ويؤمن بها هى نفسه، قد يأتى

أحد الذئاب ويختطف منه فضيلة، القصر العينى يعج بالأساتذة والمدرسين والمعيدين، وفيهم الكثيرون ممن يتفوقون عليه علمًا وخلقًا وشكلاً، وفضيلة قوية الشخصية، والحجاب الذى تلبسه يحمل الالتزام والصدق، لقد حاول إقناعها بخلعه، فرفضت، لم يتضايق كثيرًا؛ لأن تمسكها بالحجاب يدعو إلي الطمأنينة الكبيرة، فضلاً عن أنه لا يعنى انتماءها لاتجاه سياسى بعينه، لا ينكر أنها مسلمة مستنيرة. . هذا ما يعتقده. . لكن من يدرى؟؟ إنه لم يكتشف بعد عالمها الخاص، وليس بمقدوره أن يفعل، فليرض بما يشهده ويلمسه، والعملية الحسابية التى تداولها منذ زمن بعيد تؤكد له أنها هى الفرصة الوحيدة المناسبة له حتى الآن، وبالتالى لا يصح أن تفلت الفرصة.

حينما يقوم بإجراء العلملية الجراحية لمريض ينسى كل شيء إلا المبضع وأدوات الجراحة وخطوات العملية، كل التفاصيل مرسومة فى ذاكراته بدقة، ويده تتحرك بمهارة. . عالمه هو ذلك الحيز الصغير، حيث العضلات، والأوردة والشرايين، والأحشاء، والأعصاب، والأغشية، ويصبح

المريض الراقد تحت تأثير التخدير مجرد شيء. . الإنسان ككيان شامل لا وجود له. . فهو يتعامل مع مادة. . وفي العيادة يعامل المرضى بفظاظة لافتة للنظر، لكنهم يغفرون ذلك لما عرف عنه من كفاءة وموهبة ونجاح.

قال له أبوه ذات يوم: «لم نعد نملك قرشًا واحدًا. . بعنا البهائم والحمار وأثاث البيت. . لم يبق إلا الأرض التي نزرعها ونأكل من خيراتها. . قد تسألني لماذا لا نبيعها، أو نبيع جزءًا منها؟؟ هذا مستحيل يا عادل. . إنها ميراثك أنت وإخواتك، وهي الشيء الوحيد الذي يجب أن يبقى. . وثلاثة أفدنة ليست بالشيء الكثير. . ذهبت لأقترض مبلغًا من عمك «الحاج بسيوني» لكنه اشترط أن نعقد قرانك على ابنته عزيزة. . وأنت لا تفكر في الزواج من فلاحة. . عالم بلا رحمة يا ولدي، وأنت لم تزل في السنة الثالثة بكلية الطب. . هل أسرق يا عادل؟ أم أحمل بندقيتي وأقطع الطريق؟؟ لم يعد لي في الأمر حيلة. . سمعت أن وزارة الأوقاف تقدم عونًا للطلبة المعوزين، لماذا لا تذهب يا ولدي وتحاول؟؟؟».

كان أمرًا شاقًا بالنسبة لعادل، لكنه فى لحظة يأس وضياع قرر أن يذهب . . دخل المبنى الشامخ، كان محرجًا فى أن يسأل، لكنه كان يمضى فى طريقه مصرًا على إكمال الشوط حتى النهاية، وليكن ما يكون . . كان فى دوامة عاتية من الأفكار، والذل يربك خطواته، واصطدم عند منحنى الممر بإنسان . . هتف:

- «رشدى؟؟».

- «عادل؟؟ ما الذى أتى بك إلى هنا؟؟».

دارت الأرض بعادل، ماتت الكلمات على شفتيه، وكسا الشحوب وجهه الوسيم، لكنه تمالك أعصابه، وقال:

- «جئت لزيارة قريب موظف هنا . . أنت تعرف عائلتنا منتشرة فى كل مكان . .».

- «هذا من حسن حظى».

- «ماذا؟؟».

- «أنت تعرف الحالة فى هذه الأيام، والفقر ليس عيبًا . .».

- «لا أفهم . . » .

- «جئت بصراحة أطلب معونة . . » .

- «أية معونة؟؟» .

- «هيا بنا إلى قريبك . . إنه يعرف كل شيء . . » .

ومشى عادل إلى جواره على غير هدى ، لم يعد بقادر على التماسك إنه يكاد ينهار . . الدموع توشك أن تطفر من عينه ، إنه مأزق قاتل ، وأخذ يتصرف في ارتباك ، يدخل هذا المكتب ثم يخرج ، ويسأل هنا وهناك ، كان واضحًا أن عادل هذا غير عادل الذى يعرفه زميله «رشدى القصاص» فى الكلية ، فكر عادل فى مخرج ، لم يثب إلى ذهنه سوى دورة المياه . . حسنًا ، ليستأذن ويذهب إليها ، ويغلق على نفسه الباب ، وينكمش فى داخلها وسط الروائح الكريهة حتى تهدأ أعصابه ، ويلم شتات نفسه ، وحينما خرج بدت آثار الدموع فى عينيه المحتقنتين ، قاسه رشدى بنظراته ، وهز رأسه قائلاً وهو يمسك بذراعه :

- «لا تقسُ على نفسك هكذا . . » .

- «ماذا تعنى؟».

- «أعرف أن كبرياءك من النوع القاتل، لكن ليس الأمر على هذا النحو من السوء..».

- «لا أفهمك..».

وصفعه رشدى بالحقيقة:

- «أنت مثلى جئت تطلب المعونة».

دفعه فى عنف وغضب، وصرخ:

- «اخرس..».

ابتسم رشدى القصاص، وقال فى سخرية محببة:

- «البلد بلدنا.. والمال مالنا.. ولا ذنب لنا إن ولدنا فقراء.. اللهم أن نحقق الهدف.. وأنا معى بطاقة توصية بصراحة.. لقد أخفيت عنك الأمر فى البداية.. أما وأن الأمر كذلك فسوف أضيف اسمك إليها، وليكن ما يكون..».

خفض عادل فتوح رأسه فى مهانة مريرة، وقال:

- «بشرط».

- «موافق مسبقًا».

- «لا يصح أن يعرف أحد بذلك فى الكلية».

- «بالطبع يا عادل . . من الجنون أن نفضح أنفسنا . . ».

- «وإذا حدث قتلتك . . ».

- «مجنون . . ويمكنك أن تفعلها ببساطة . . ».

وضحكا وتعانقا، وذهبا إلى الموظف المختص.

كان الأمر يبدو عاديًا، ودق قلب عادل من الخوف حينما قال الموظف:

- «لقد انتهى الموعد منذ أسبوع . . ».

داهمهما هَمٌّ ثقيل، قاسهما الموظف بنظراته، وتمتم:

- «خذا هذه الورقة واذهبا إلى المكتب المجاور».

وفى طريقهما للمكتب الثانى قرأ عادل فتوح التعليق المكتوب:

- «هذان طالبان طيبان فاتهما القطار . . أرجو عمل اللازم نحو مساعدتهما . . مع الشكر . . توقيع» .

مر الأمر على خير ما يرام بسرعة مذهلة، لكن الذى ضايق عادل هو استخراج بطاقة خاصة ملصق عليها صورته، وبدون هذه البطاقة لا يستطيع صرف المبلغ الشهرى المقرر . . كان المبلغ خمسة جنيهات . . قال رشدى القصاص مازحًا :

- «هدية السماء إلى الأرض . . » .

لم يستطع عادل أن يذهب إلى الكلية فى اليوم التالى، كان يجلس صامتًا دونما رغبة فى طعام أو نمو أو مذاكرة، لكنه نفض عنه الغم والكمد بإرادة صارمة مصطنعة، وولّى وجهه شطر الكلية، الشيء الجديد الذى انتابه هو أنه لم يعد يرغب فى رؤية رشدى، أصبح يكرهه كما يكره الفقر، ووجه عمه الحاج بسيونى، وابنته عزيزة . . لكن الحياة لا يصح أن تتوقف . .

ولم يكد يمضى أسبوع حتى جاءه والده، كانت المفاجأة أنه يحمل معه مبلغًا كبيرًا من المال، مائتى جنيه دفعه واحدة . . تمتم العجوز :

- «لقد بعت لعمك بضعة قراريط . . أمك وإخوتك أصروا على ذلك . . كان الجميع مستعدون للتضحية من أجلك حتى النهاية . . » .

طوق أباه بذراعيه وانفجر باكيًا . . كان يبكى كما لم يبك من قبل فى حياته . . لقد أفرغ كل ما فى كيانه من هموم وعذاب على كتفه ، وكان جسده ينتفض . . ثم قص على أبيه ما جرى فى وزارة الأوقاف ، واستطرد :

- «يجب أن تسترجع الأرض . . » .

- «انتهى الأمر يا ولدى ووقعت عقد البيع . . ثم إنك فى حاجة إلى كتب وملابس وإيجار مسكن . . أنت عندى أغلى من كل أرض العالم . . لو قالوا لى بع حياتك لفعلت . . من أجلك يا عادل . . » .

ومات أبوه قبل موسم حصاد القطن . .

يومها تمتم عادل :

- «لقد مات الحب . . فليمت الناس كلهم بعد ذلك . . » .

[٢]

حين أصبح عادل فتوح نائبًا بقسم الجراحة، تدفقت ينابيع السعادة فى قلبه، وشعر أنه على أعتاب المجد، لقد كان تعيينه أمرًا مفروغًا منه، فهو أول الدفعة، وعمله يشهد له بالاقتدار، وانتظامه فى مباشرة العمل يزيد من الثقة فيه، وطاعته لرؤسائه، وتوقيره لهم بدا لافتًا للنظر، فكان يحمل القهوة بنفسه لأستاذه، ويتحمل منه أى نقد لاذع، حتى اتهمه زملاؤه بالنفاق «ومسح الجوخ» كما يقولون، لكنه لم يكن يرى فى ذلك أى عيب.. من علمنى حرفًا صرت له عبدًا، وأستاذه هو الوحيد الذى يضمن له النجاح فى الامتحانات.. نعم فى هذا المكان لا يهم أن تكون متمكنًا من علمك، فمعظم المعيدين كذلك، وإنما المهم أن يرضى عنك الأستاذ، ويوافق على نجاحك.. إن الأساتذة فى

العادة يجتمعون قبل الامتحان فى القسم، ثم يقررون أسماء الناجحين، وعددهم. . فإذا كان مصيره بيد الأستاذ، فماذا يفعل غير ذلك؟؟ «فليقولوا ما شاءوا» لكنهم يمارون ويكذبون ويدعون العصمة والشرق والكرامة، وهم من هذا كله أخلياء. . الحقد يحركهم، والغيظ يأكل قلوبهم. . سوف أحقق أهدافى مهما كان الثمن، ولو خضت فى مستنقعات الرذيلة، لست وحدى الذى يضع المبادئ، والنظام كله يقوم على الهوى والمنفعة، وأنا ابن زمانى ومجتمعى. . ارفع رأسك يا أخى. . فقد مضى عهد الاستعباد. . لقد خلقت فيكم الحرية. . وخلقت فيكم الكرامة. . صدق الزعيم. . من قال إن احترام الأساتذة مخلٌ بالشرف والكرامة؟؟ الأستاذ يغازل الحكيمة نادية. . وأنا مالى؟؟ إلى جهنم وبئس القرار!! هى فى مثل سن ابنته. . إنه غارق صباح مساء فى طوفان العمل. . وزوجته تعانى من أعراض سن اليأس. . وهو يرفه عن نفسه. . من حقه أن ينال قدرًا من الترفيه، ويتخلص من مشاعر الملل والإحباط. . ونادية وردة متفتحة. . تضج بالحياة والأنوثة

والبهجة . . الرجل معذور . . لقد سافرت معه ذات مرة إلى مؤتمر عالمى فى «فيينا»، وما دخلى أنا؟؟ هل لأنى حجزت التذاكر ، وأوصلتهما إلى المطار؟؟ مجرد مجاملة!! هل أقول الحقيقة؟؟ لقد غازلتنى الملعونة نادية ، حاولت إيقاعى أنا الآخر فى شباكها ، قلت لها :

- «أنا أكره الخيانة» .

- «خيانة مَنْ؟؟» .

- «الأستاذ . . » .

ضحكت فى استهتار :

- «إنه ليس زوجى» .

- «لكنه أستاذى» .

- «ولأنه أستاذك سوف تنفذ رغباتى» .

- «مستحيل . . » .

- «كلمة واحدة منى تجعله يطردك من القسم . . ويطاردك فى كل مكان . . ولن تنجح أبدًا . . » .

- «لماذا كل هذا؟» .

- «لأنى لا أغفر للذين يعصون أوامرى . . ماذا تظنه فاعلاً بك إذا زعمت أنك تغازلنى وتطاردنى؟؟» .

- «كذب . . كذب . . » .

- «تأدب . . إنها مجرد سلاح . . كلهم يكذبون . . انظر حولك . . هذه الكيانات كلاها قائمة على الكذب . . اسمع . . سأنتظرك الليلة فى شقتى الخاصة . . هو الذى استأجرها لى . . » .

هذه الملعونة لها عينان تذيبان كل مقاومة ، نبرات صوتها تبعث الحمى فى جسدى . . قالت لى :

- «ادخل جنتى . . وحذار أن تسأل عن شىء . . » يا ويلى . . أنا أتحرك كالمسحور . . وبدا خيال فضيلة ملفعًا بالغيوم . . وأكدت لى نادية أننى سوف أنجح فى أول

امتحان . . وهذا أمر نادر الحدوث، لو صدقت لصعدت بأسرع من البرق، ولأصبحت فى خلال سنوات قليلة مدرسًا . . ثم أستاذًا مساعدًا . . ثم أستاذًا . . يا لها من أحلام وردية رائعة . . وقالت لى نادية : ما كان لى أن أسعد بهذا العجوز المتصابى . . لكنى أعطف عليه . . أؤدى مهمة ثقيلة . . وأستفيد . . إن أردت الصراحة فقد اشترى لى هذه الشقة، وغمرنى بالهدايا والمجوهرات . . إن كل ما أخذته منه يقل عن دخل شهر واحد لعيادته . . كانت نادية تدخن . . أهدتنى ولاعة ذهبية . . وأنا لا أدخن . . ولكن فرحت بها . . كطفل أمسك بلعبة ظريفة . . ولدى نادية ذقت الخمر لأول مرة . . مجرد تجربة . . واستمرأت التجربة . . أين أنت يا أبى؟؟ أتراك ساخطًا علىّ فى قبرك؟؟ لكن من قال : إن الموتى يتألمون أو يشعرون؟؟» .

فترت علاقة عادل بالدكتورة فضيلة، ولعله كان يحاول الهرب منها، إن هذه الفتاة الصامدة المحجبة قادرة على بث الرعب فى نفسه، يخيل إليه أحيانًا أنها تقرأ صفحات نفسه، وتتغلغل إلى أعماقه، وتكشف نواياه، لقد خانها . .

هذا صحيح ، لكنه لم يزل مصراً على الزواج منها ، إن الخطة القديمة لم ولن تتغير ، وهو في هذه الأوقات الحرجة لا يستطيع الإفلات من إسار نادية ، لو فكر في ذلك لدمرته تدميراً . . وخيل إلى فضيلة أن شيئًا لا تعرفه يجرى في الخفاء ، قلبها يحدثها بذلك ، إن رياح التغيير تعصف بعادل ، لقد قلّت لقاءاته معها ، أصاب علاقتها قدر من البرود لا يخفى على مثلها ، تضايقت كثيراً في البداية ، ومنعها كبرياؤها من مفاتحته في الأمر ، إنها لم تزل على البر كما يقولون ، ولم تلق بنفسها بعد في خضم الأمواج ، لكن الأمر يحتاج إلى حسم . . بالأمس كانت تتمنع ، لكنها اليوم تتمنى أيفاتحها في موضوع الزواج مرة أخرى ، وهو لا يفعل ، هذه الحيرة القاتلة لا تعنى سوى أنها تحبه . . أجل تحبه على الرغم من عيوبه وتمرده ، وعلى الرغم من أفكاره التي تبدو شاذة في بعض الأحيان ، كانت واثقة من نفسها ، وتعتقد أنها قادرة على إحداث التغيير المطلوب له . . والحب يصنع الكثير . .

التقى بها فوق الكوبرى الذى يربط القصر العينى القديم بالقصر الجديد ، وهتف في مرح مصطنع :

- «هالو فضيلة!! أين أنت؟؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان لأحمل إليك تهانىّ القلبية . . لم أعلم إلا أمس أنك عينت معيدة فى قسم «الباثولوجيا» . . معنى ذلك أننا سنبقى معًا إلى الأبد فى القصر العينى . . » .

ابتسمت فى تحفظ ، وقالت :

- «إلى الأبد؟؟» .

- «أتشكين فى ذلك؟؟» .

قاسته بنظراتها المتفحصة الحزينة ، وتمتمت :

- «أين أنت؟؟» .

- «تعرفين طبيعة العمل فى الجراحة . . » .

- «العمل فى الجراحة أخف من قسم الطوارئ . . » .

- «قد يكون لك العذر فى هذا التصور لو لم تكونى طبيبة» .

أطرقت برأسها لحظات وهى تكز على أسنانها ، ثم رفعت رأسها قائلة فى جدية :

- «ماذا جرى لك؟؟» .

احتقن وجهه حرجًا، لكنه سرعان ما تماسك، وقال :

- «لم يبق على الامتحان سوى أيام . . » .

- «أعرف . . » .

-« لكنك لا تعرفين أن النجاح يتبعه ارتباطنا إلى الأبد . . » .

كانت تميل إلى تصديقه، فهى تعرف أنه لو كان عازمًا على الفرار لقال وفعل، وعندما يتحدث عن الارتباط، فهو يعنى ما يقول، وخطت فى طريقها إلى قسم «الباثولوجيا»، وسار إلى جوارها ليوصلها إلى هناك من باب المجاملة، ساورته المخاوف والشكوك، ماذا يحدث لو رأته «نادية» معها؟؟ إن الامتحانات على الأبواب، وعلاقته بالأستاذ على ما يرام، بل إن الأستاذ يثنى عليه صراحة، وهمس فى أذنه مؤكدًا له النجاح من أول مرة . . لو غضبت عليه نادية فى هذه الأوقات العصبية لضاع كل شىء . . كان يتلفت يمنة ويسرة . . ضحكت فضيلة قائلة :

- «ما بك؟؟ إنك تتلفت كاللص..».

تجاوب معها بضحكات مصطنعة باهتة:

- «أتخاف أن يراك أحد معى؟؟ لم تعد صغيراً.. ولا أنا..».

أردف قائلاً:

- «لقد كبرنا على الخوف».

غمزت قائلة:

- «مَنْ خاف سلم».

- «العلم هو الحرية إذا لم نكن أحراراً، فلا معنى للعلم الذى تحمله رؤوسنا..».

قالت وهى تضع يديها فى جيبى المعطف الأبيض:

- «إننى لا أحب الفلسفة».

- «لماذا؟؟».

- «لأنها مجرد كلمات».

- «وتعبر عن أفكار عظيمة . . ».

- «العظمة فى العمل . . ».

- «العلم والعمل عندى شىء واحد . . ».

- «نعم العلم . . أما الفلسفة فلا . . ».

- «من قال ذلك؟؟».

- «أنا . . ».

- «تتفلسفين دون أن تشعرى . . ».

كانا قد وصلا قسم الباثولوجيا، وتوقفت فى مواجهته قائلة فى هدوء:

- «أريد أن أراك الليلة . . ».

قال وقلبه يدق:

- «الليلة بالذات؟؟».

- «نعم . . ».

- «أين؟؟».

- «فى كازينو هافانا القريب من هنا».

وأشارت ناحية الكازينو، ثم حيته، وقالت وهى تنصرف:

- «الساعة الثامنة مساء.. لا تنس..».

بقى جامدًا فى موقفه لحظات، الحيرة تأخذ بتلابيبه، والقلق يعصف به عصفًا، إن نادية هى الأخرى تنتظره، وفى الموعد نفسه، أية كارثة تلك؟؟ تمتم فى حسرة: «نادية.. آه.. روحى فى يدها..» إنه يشعر برغبة عارمة فى كأس تطفئ هواجسه الملتهبة، ويريد أن يتخفف من أثقال مبهمة فى جسده، وفى الوقت نفسه يبدو أن عدم ذهابه إلى موعد فضيلة سيثير الغضب والمشاكل والشبهات.. أدار وجهه ومضى فى طريقه.. إنه لا يعرف على وجه اليقين ماذا يفعل، لكنه لا بد أن يعرف.. وضحك فى سخرية بشعة، وتمتم: «وهل يحتاج الأمر إلى تفكير أو حيرة.. نادية طبعًا.. لو لم أذهب -والامتحانات قد قربت- لكنت كمن يفسد «الطبخة» بسبب قرش ملح.. وفضيلة طيبة فعلاً،

ومن السهل الاعتذار، وانتحال بعض القصص الخالية المثيرة.. وسوف تنسى المسكينة، وتبادر بتجديد موعد آخر.. وجل من لا يسهو..».

كان يشعر بشيء من تأنيب الضمير حيال هذا الموقف، لكنه لم يدع نفسه نهبًا لمزيد من الكرب، وعندما يتخذ قراره لا يصح أن ينظر وراءه.. إلى الأمام دائمًا.. عندما ينظر خلفه يشعر بضيق هائل، وماذا فى الماضى غير الفقر، والدموع، وذل الحاجة، وليالى المعاناة الطويلة؟؟ إنه مطمئن إلى أن فضيلة لن تفلت من يده، لقد وقعت فى شباكه وانتهى الأمر، لكن لا يصح أن تذهب فضيلة إلى كازينو هافانا، وتجلس وحيدة تنتظر على أحر من الجمر، إنه شيء ينال من كبريائها ووضعها كأنثى، فلماذا لا يكلمها فى التليفون ويعتذر.. هذا أفضل وأكرم، يجب أن يكون مهذبًا لبقًا، ومن الضرروري أن يتجنب الأخطاء التى تؤلمها.

حينما دخل قسم الجراحة وجدها تمر مرفوعة الرأس، واثقة الخطا «تمشى ملكًا» كما تقول أم كلثوم فى أغنيتها

«الأطلال»، ما أقل المقاطع الغنائية التي يحفظها على الرغم منه . . «من ينظر إليك يا نادية وأنت في هذا المجد والصولجان يشعر أنك أميرة من أميرات البيت المالك قبل انقلاب يوليو الشهير . . الجمال والأنفة والثقة كلها أنت . . . يا ملاك الرحمة الجميل الداعر . . ما معنى ذلك؟ ألا يمكن أن يظهر كل شيء في هذا الوجود على حقيقته وصراحته؟ أم أن طبيعة الحياة الغموض والكذب والأقنعة الزائفة؟ . . هذا مسرح كبير كما يقول يوسف وهبي . . هذه الآثمة ماعون من فسوق وخمر وبروتينات . . هي تشتهي اللحم . . وتفنى في اللذة . . وتذوب في أطايب الحياة . . لو أبدلنا كلمات ملاك الرحمة وقلبناها لأصبحت شيطان القسوة . . لكن من يصدق إن هذا الوجه الفاتن المثير يخفي وراء ذلك الدنس كله . . المصيبة أنني أشتهي هذا الكيان كله برغم ما فيه . . لماذا يحدث ذلك؟؟ أيها الناس أجيبوني . . ؟؟ لماذا؟؟ . . » .

همست وهي تصافحه :

- «جئت في وقتك . . » .

- «خيراً . . » .

- «باب الجنة مغلق اليوم» .

أدرك ما تعنيه، وطرب دون أن يظهر عليه ما ينبي عن ذلك، وتمتم :

- «مغلق للتحسينات؟؟» .

ضحكت في شيء من الضيق، وقالت :

- «ومتى احتاجت جنتي إلى تحسينات؟؟» .

قال في خبث :

- «الآن أدرك مدى مأساة آدم وحواء . . » .

قالت في همس :

- «لم تسألني عن السبب» .

- «وهل أجرؤ على ذلك؟» .

تلفت حولها، وقالت وهي تجر عادل إلى مكتبها :

- «سيادة البك الكبير سيشرفني الليلة . . » .

ابتسم قائلاً:

- «إنه لشرف عظيم..».

- «أتسخر منى؟؟ أم هى الشماتة؟؟ لم أعد أطيقه».

- «الصبر طيب يا بنت الناس».

سددت إليه نظرات نافذة، وقالت:

- «أجل.. حتى ينتهى الامتحان.. إننى أعرفك».

- «تسيئين الظن بى..».

- «هل نسيت أنك كنت تتمنع، ولولا التهديد لـ..».

قاطعها قائلاً:

- «الأمر اليوم مختلف تمامًا».

- «لماذا؟؟».

- «لقد عرفت الجنة..».

- «أيها الملعون..».

- «وشتائمك كالسكر..».

أمسكت بيده، وضغطت عليها قائلة:

- «ولهذا سأحضر لك أسئلة الامتحان..».

- «غير معقول..».

- «إن نادية قادرة على فعل ما تريد..».

- «دعينى أقبل يدك الجميلة..».

- «ليس الآن.. هذا مكان عمل يا مجنون».

قالت له: «إن حياتها السرية مع الأستاذ راكدة مملة، وإن مجيئة خفف عنها الكثير من سخافات الأستاذ وتصابيه، ولولا ذلك لانفجرت ودمرت معها كل شىء.. «ووجودك أنقذنى من هول الفراغ القاتل الذى سجنت فى عالمه.. أنت لا تعرف كم أحبك!! وإذا فكرت يومًا فى هجرى، فسأدفنك حيًا، أتفهم.. إن معظم الرجال هنا على استعداد للركوع أمامى.. لعابهم يسيل كالكلاب.. أقرأ فى عيونهم النهم.. أتعرف؟؟ ذئاب، دعنى أصارحك القول، هناك قلة تأبّت علىّ، ورفضت إغرائى.. وأنا أحترمهم، هناك

من انتـــقـــمت منهم . . لا أدرى لماذا هذا التناقض فى التصـرف . . وأنت بالذات إذا لم تكن قـد لبيت دعـوتى لقضيت عليك . . أنت منحط مثلى ، والتمنع فى هذه الحالة يستفزنى . . » .

كان عادل يضحك فى بلاهة ، ويقول :

- «النساء لا يحاسبن على عنف مشاعرهن . . » .

غـابت الشـمس ، تطلع من نافـذة حـجـرته إلى النيل العـملاق الذى يمتد فى شـموخ ، تمنى أن يخلع مـلابسـه ، ويثب إلى النهر ، ويعانق الأمـواج ، ويشرب المياه العذبة ، ويسبح إلى ما لا نهاية . .

●●●

[٣]

فضيلة تخطت الخامسة والعشرين، كانت أصغر البنين والبنات، أختها رندة خريجة الآداب مدرسة إنجليزى، متزوجة من ضابط بالجيش برتبة مقدم، وسميرة صيدلانية، وتزوجت من طبيب نسائى وولادة بمستشفى الجلاء، وأخوها سعد صحفى بدار أخبار اليوم تزوج هو الآخر من صحفية زميلة . . أصبح لوالدها الشيخ علام العيسوى- العالم الدينى المعروف- سبعة من الأحفاد بنين وبنات . . أما أمها فقد اختارها الله إلى جواره منذ أربع سنوات . . كانت تقول وهى تلفظ أنفاسها : «تزوجوا جميعًا على يدى إلا أنت يا فضيلة . . يا آخر العنقود، لكم تمنيت أن أعيش حتى أراك فى «بيت العَدَل» ، وتمتم أبوها عندئذ وهو يحرك حبات مسبحته فى توتر : «إنها إرادة الله . . لا راد لقضائه،

ولا معقب لحكمه»، وبيت الشيخ علام واسع، فيه أكثر من عشر غرف وحديقة مهمة بها أشجار مانجو وليمون وجوافة ونخيل. . والجو هادئ فى أطراف حى «عين شمس»، والبيت القديم يقبع منفردًا كقاعة. . أقرب بيت إليه يبعد حوالى خمسين مترًا. . وهو من ثلاثة طوابق. . وآخر خط الأوتوبيس قبل مائتى متر. . ونسمات الشتاء باردة حلوة تنعش الروح، ولولا روماتيزم المفاصل لكان الشيخ علام العيسوى واثبًا فى رحلاته الخلوية القصيرة بين الحقول، كما كان يحدث فى مثل هذا الوقت من كل عام. . لكنه الآن مضطر للركون إلى الشرفة المشمسة فى الدور الثانى، إنه يتطلع إلى الآفاق الممتدة إلى بعيد. . هو فى أواخر العقد الثامن. . يا سبحان الله. . ثمان وسبعون خريفًا مرت. . عمر عريض طويل. . ولادة قبل أن يبزغ فجر القرن العشرين. . وكل شىء يتحول بسرعة البرق. . الناس، والبنايات، ووسائل المواصلات، والأخلاق، والأوضاع الاجتماعية. . من أين تدفق هذا السيل الجارف من البشر؟؟ الشوارع والأزقة تغصُّ بالأطفال والنساء والرجال. . شراء

وبيع . . أصبح الشباب أكثر جرأة وانحرافًا . . مات الملك . . يحيا الملك . . أصبح الصبية قادرين على اتخاذ قرارات خطيرة دون تحسب للنتائج . . لم يكن له رأى يذكر فى زواج أى من أولاده . . والأحفاد الصغار يمازحونه، ويفعلون به الأفاعيل . . «انظر هذا الكتاب يا جدى» ويتناول الكتاب الصغير، ويحاول أن يتصفحه، فإذا بالكهرباء تسرى فى يده، وتهزه هزًا، فيقذف بالكتاب فى خوف ويهتف «ملاعين»، ويضج الأطفال بالضحك، ثم يشرحون له الخدعة، وكيف أن الكتاب فيه كهرباء، بسبب بطارية مخبأة فيه . . ومرة أخرى يقدمون له قداحة كى يشعل السيجارة فإذا بسيل من الرغوة البيضاء يتدفق تشبه رغوة الصابون . . ويصيح الأطفال فى سعادة ومرح، ويهتف مرة أخرى «ملاعين»، لم يعد يجد الهدوء والسكينة إلا فى المسجد القريب الذى يذهب إليه متوكئًا على عصاه . . هناك يشم رائحة الجنة . . الصحف سلوه وقت الفراغ . . خاصة صفحات النعى، لقد ذهب الكرام وعمالقة العصر . . ذهب الشيخ المراغى وعبد المجيد سليم

والخضر حسين وشلتوت ودراز . . آه «يا دنيا غرى غيرى ، أعلىّ تعودت ، أم إلىّ تشوقت؟؟ لقد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها . . آه من قلة الزاد . . وبعد السفر ووحشة الطريق!! رحم الله الإمام على - صاحب هذه الكلمات - وكرّم وجهه . . حين توشك الشمس على الأفوال تتبلل عيناى بالدموع . . كل شىء إلى زوال . . ثم يولد العالم من جديد . نحن زرع الله فى الأرض . . تنبت . . ونخضَر . . وتمور فينا طاقة الحياة وتثمر . . ثم نذبل . . ويأتى منجل الحصاد» . . ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٥ ، ٤٦]، وفى كل فجر يصحو الشيخ علام، ويصلى، ثم يشرب الشاى وكوبًا من الحليب ويقرأ القرآن . . ويهرول الجميع إلى أعمالهم حتى الأطفال يذهبون إلى المدارس ودار رياض الأطفال، ولا يبقى إلا الخدم والرُضّع، وبعد الظهر يحتشد الجميع حول مائدة

الطعام. . لا . . موائد الطعام. . ويبقى على مائدة الشيخ فضيلة وأطفال أختيها وأخيها . . إنها حياة طيبة لا شك، الحمد لله أنهم لم يرسلوا بالشيخ إلى دار للمسنين، ومن نعمة الله أنه ما زال فى وضع صحى طيب، على الرغم من آلام الروماتزم. .

- «أتنوين الخروج هذا المساء يا فضيلة؟؟».

ردت وهى تنسق ملبسها باهتمام:

- «أنت تعرف مسئولياتى يا أبى. . ».

لم تعد فى حاجة لأن يوجهها، فهى عاقلة وناضجة، ومرت بتجربة المراهقة بسلام، هذا من فضل الله. . لم يستطرد فى مناقشتها، واكتفى بأن دعا لها بالتوفيق والسلامة. . حينما أصبحت فضيلة فى الشارع المترب الطويل وحدها كانت تفكر فى عادل فتوح. . تفكر فى مصيرها، بالأمس كان يتقرب منها، ويتمسح فيها، فتزداد عزوفًا وأنفة، واليوم يغيب عنها، فيعذبها الأرق، ويعصف بها الضيق، ثم تستجدى منه موعدًا فى كازينو هافانا. . أتراه يأتى فى الموعد؟؟ إنها قلقة، وتعمل ألف حساب

لمجيئه، وهى التى طالما تهربت منه، وقدمت الاعتذار تلو الاعتذار. . لماذا هذا التناقض؟ إنها تحاول تجاهل ذلك، فهو يحبها، وهى تريد أن تتزوجه، أسقطت- بسبب عواطفها - الكثير من المواصفات التى وضعتها قبل ذلك لشريك حياته، إن عالم المثال لا وجود له على الأرض، فالكمال لله وحده، كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه، كما يقول الشاعر القديم. . على الرغم من عنفه وتمرده وتطرفه، إلا أنها تنظر إلى وجهه فتشعر أنه وجه طفل مشاغب «إلىّ يا طفلى الحبيب. . سأعرف كيف أهدئ ثائرتك، وأملأ فمك بالحلوى، ويديك باللعب، وأحكى لك حكايات ألف ليلة وليلة. . إن شهرزاد استطاعت أن تغسل يدى مليكها الملطختين بالدم، وأن تسكب الحب والحنان فى قلبه، وعلمته كيف يبكى ويبتسم، وتورق فى روحه مشاعر الإنسان النبيل».

كانت فضيلة موقنه أنها تحبه، حاولت أن تحلل مشاعرها بطريقة حيادية فلم تستطع، لم تخدع نفسها، إن عواطفها أقوى من المنطق والحسابات، لو كان عادل مجرد حالة لما استعصى عليها تحديد معايبه وأخطائه، لقد انفتح باب قلبها

له مؤذنًا بالدخول، ومن الصعب أن تغلق باب القلب الذى يعمل دون إرادة ليل نهار.

كان رواد الكازينو قليلين، ربما بسبب البرد، ورأته من بعيد جالسًا ينتظر، استقبلها فى فرح ظاهر، طربت لهذا اللقاء الحى النابض، فى داخله سياط من ندم، كلما أوغل فى الإثم مع نادية، ازداد حبًا لفضيلة، الزواج من امرأة فاضلة يسعد القلب، ويبهج النفس.

قالت له:

- «ماذا تشعر عندما تكون معى؟؟».

هتف فى حماسة:

- «بالنور يغمرنى.. بالسكينة والراحة..».

ضحكت قائلة:

- «سأنغص عليك حياتك؟».

- «يا ليت..».

وتطلع إلى النيل، وحزم الضوء تبين عن بعض جنبات صفحته العريضة، وقال:

- «متى أصل شاطئ الأمان؟؟».

خفضت رأسها قائلة:

- «تستطيع أن تفعل».

- «كيف؟؟».

- «تعدل من وضع الشراع، وتحرك المجدافين فى الاتجاه الصحيح، وهكذا تصل إلى الشاطئ..».

حاول أن يمسك بيدها، فأبعدتها برفق، وقال:

- «تعنين أنك..».

- «معدل ذكاؤك كبير، ألم تفهم بعد؟».

غاب ببصره إلى بعيد، الكأس والدخان وامرأة عابثة هناك، ودنيا من خدر ولهو وخطيئة.. كيف تفعل ذلك يا ابن فتوح الطيب الفقير؟؟ أهى غيبوبة طارئة من صنع شيطان مريد؟؟

قال لها:

- «يخيل إلىّ أنك أعظم إنسانة فى الوجود».

أرادت أن تستمر فى حوارها الأول، فسألته:

- «هل فهمت؟؟».

طوقها بنظراته الحانية، وقال:

- «بعد الامتحان سأفاتح أباك».

- «قل إن شاء الله..».

- «إن شاء الله».

نادية الملعونة تطارده بذكرياتها الوقحة، هى الآن بين أحضان الأستاذ الكبير.. تعسًا لها.. قال دون وعى:

- «بعض المرضى يشتهون الطعام الذى يقتلهم.. وبرغم تحذيز الأطباء فهم يسرقونه.. ما معنى ذلك؟؟».

دهشت لما يقول، لم تجد صلة بين ما كانا يتحدثون فيه وبين الكلام الذى نطق يه.. ردت ضاحكة:

- «معناه أنك جائع.. هل أطلب لك ساندوتشًا؟؟».

أمسك بيدها على حين غرة، وتشبث بها قائلاً:

- «أكاد أموت من الجوع . . تعرفين أن الطعام إحدى ملذاتى الكبرى، هل تجيدين الطهى، أم أنك مثل باقى الطبيبات؟؟».

وأخذت تحدثه عن قسم الباثولوجيا والأساتذة والزملاء، ومدى سعادتها بالعمل فى هذا المجال، وأخذ هو الآخر يتكلم بعشق عن الجراحة، والعمليات الكبيرة التى يتمها بكفاءة عالية . . لكن طيف نادية يطل عليه من جديد، فيصرخ فجأة:

- «نصيحة يا فضيلة . . احذرى الأساتذة».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «أنت جميلة . . وهم ذئاب».

فهمت ما يرمى إليه، وضحكت فى براءة، ثم قالت:

- «ليس الأساتذة وحدهم . . ».

- «كيف؟؟».

- «الزملاء أيضًا . . ».

- «هل ضايقك أحد؟» .

- «ليس لهذه الدرجة . . أحدهم فاتحنى فى أمر الزواج منى» .

هب واقفًا :

- «مَنْ هذا المأفون؟؟» .

- «زميل اسمه رشدى القصاص . . » .

اربدَّ وجهه، وبدا الجنون فى عينيه، وقال بصوت كالفحيح :

- «سألقنه درسًا لن ينساه . . » .

أذهلها غضبه الصارخ، وقالت :

- «ماذا جرى لك؟؟ إنه موضوع تافه، وقد أفهمته بأدب أننى مرتبطة . . وانتهى كل شىء، ثم لا تنس أنه تتلمذ عند والدى فى ثقافته الدينية . . » .

- «هذا الجبان لا يجد ما يأكله، إنه يعيش على الإحسان والصدقات . . سأعرف كيف أربيه . . » .

أخـذت تهدئ من روعه وتطمئنه، ورجتـه ألا يتـدخل، فهى كفيلة برد مثل هذه التصرفات، وبعد أن تلاشى غضبه عاهدها أن لا تكلمه بتاتًا، وبذلك يستطيع أن ينسى الموضوع تمامًا. . كـانت فى الواقع سعيدة بما حدث، إن ذلك ليس له سوى معنى واحد، وهو أنه يحبها ويغار عليها. . تلك تصرفات عاشق مجنون، وهى ترحب بهذا النوع من الجنون.

كان يلتهم الساندوتش، ويرتشف الشاى الساخن، وهى ترمقه فى حب. . «بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد أن. . وأن. . وأن» خـواطر تدور فى ذهنهـا عن الرجـال الأطفـال، وعن سيف الملك، وأعناق النساء الجميلات الحزينات، وعن عالم الخرافات والسحر والحب والمكائد. .

- «وعـاد إلى سكن الأطباء وهو يفكر فى فضيلة. . والشبكة والزواج والامتحـان والأستـاذ. . ورشـدى القصاص. . ونادية. . العطر الغجرى الذى يورثه الخوف والدوار والعذاب. . وابتلع قرصين من الفاليوم. . ونام. .

●●●



حينما علم الشيخ علام العيسوى بأن ابنته فضيلة تبدى ميلاً للزواج من زميلها الدكتور عادل فتوح، فكر بضع لحظات، ثم قال فى هدوء:

- «أعلم أنها مسألة مصيرية، ثم إن الفقر ليس عيبًا، وهذا الشاب يمتلك من الميزات والمؤهلات -حسب قولك- ما يجعله زوجًا مناسبًا.. وأنت فى حالة من الرشد والعلم والخبرة تجعلك قادرة على الاختيار الصحيح، والقرار المناسب، وتحمل المسئولية.. ومن ثم فإن الرأى رأيك..».

لكن طبيب النساء والولادة زوج سميرة الصيدلانية وأخت فضيلة، كان له رأى آخر، فهو لا يحبذ أن يتزوج

طبيب من طبيبة ؛ لأن العمل يستغرقهما معًا ، فيتهدد مستقبل الأطفال ، كما أنه يحرم الزوجين من الاستمتاع بجمال الحياة . . فالطب عمل دائب فى الصباح والمساء ، ولا وجود للنوم المتصل ، أو النزهة الكاملة فى حياة من يمارس هذه المهنة ، وإذا كان لا بد من زواج طبيب وطبيبة ، فعلى الأقل يجب أن تعمل الزوجة لفترة واحدة . . إما العمل صباحًا فى الحكومة ، وإما الاكتفاء بالعمل مساء فى العيادة الخاصة . . فى حين نقدم زوج أختها رندة المقدم بالجيش ، وقال :

- «إذا كنت يا دكتورة فضيلة تحبينه ، فاضربى عرض الحائط بكل التحفظات والمحاذير . . الحب فوق كل شىء . . » .

أما أخوها الوحيد الصحفى سعد ، فقد تدخل قائلاً :

- «التحرى واجب ، فلا يصح أن تتزوج أختنا من رجل مجهول الهوية حتى ولو كان عميدًا لكلية الطب أو وزيرًا ، إن طالب الزواج فى البداية يتظاهر بكل المبادئ والأخلاق النبيلة فى علاقاته المرئية ، فيخيل إلى خطيبته وأهلها أنه

ملاك طاهر . . مهذب . . رقيق . مخلص . . وفى أصيل ، فإذا ما تم الأمر ، وضم العروسين بيت واحد ، وتعرّت الحقيقة ، وذهب التمثيل والتكلف ، وكشف العريس عن أنياب الغدر والصفاقة . . عندئذ تبدأ المشاكل ، ويحل الشقاء والتعاسة لا قدر الله . . ولهذا ، فلا بد أن نكلف شخصًا كفؤًا بالتحرى عن عادل هذا ، وعلاقاته وأسرته ، وآرائه الدينية والسياسية وسلوكياته . . وليس فى ذلك افتئات أو تجنٍّ عليه . . وأنا لى صديق «مخبر صحفى» بوكالة أنباء الشرق الأوسط يستطيع أن يحصل على أدق التفاصيل . . إنه داهية . . » .

لم ترتح فضيلة لرأى أخيها الصحفى سعد ، ولعلها خافت أن تكشف لها التحريات عن بعض الأمور المعوقة للزواج ، إنها تحبه ، والحب الحقيقى علاج لكثير من جنوح الأزواج وتطرفهم وعيونهم . . ولهذا قالت لسعد :

- «ألا يكفى ما تعانيه الأمة من المخابرات وطغيانها؟؟ إن كثرة التحريات والمراقبة هى قرين عدم الثقة بالنفس

وبالناس، ونحن فى حالة زواج، ولسنا فى حالة تشكيل جهاز سياسى. . ».

رد سعد ببساطة:

- «التحريات فى الزواج أمر طبيعى تأخذ به كافة الأسر المتحفظة التى تخاف على سمعتها، ومستقبل أولادها. . ولا أرى فى ذلك أى عيب».

تضايق سعد من تساهل شقيقته، حياته فى الصحافة علمته الكثير، الدار الصحفية التى يعمل فيها ممتلئة بالدسائس والمؤامرات، كل واحد يريد أن يصعد على جثمان زميله، إنها غابة تنهش فيها الأعراض، وتلفق التهم، وتسرى الشائعات المغرضة، وكتبة التقارير فى كل مكان، وهناك أفراد يصعدون بسرعة البرق، إما لصلة قرابة بمسئول كبير، أو لنشاطهم المكثف فى الإبلاغ عن ما يعتقدونه انحرافًا، قد يجاز مثلاً مقال من المقالات، لكن الأوامر تأتى من أعلى. . من خارج الصحيفة، وتفاجئ رئيس التحرير «عندك مقال عن كذا وكذا، باسم الصحفى

أو الكاتب فلان. لا تصرح بنشرة. . »، ويضرب رئيس التحرير كفًا بكف، إن المقال ليس فيه ما يسيء، وكاتبه رجل نظيف الماضى والحاضر، لكن عليه أن يطيع. . ليس هذا فحسب، إن عشرات. . بل مئات التصريحات الرسمية تعج بالكذب، وتمتلئ بالإنجازات والبطولات الزائفة، والخداع يصبغ كل شىء. . والكلمات والصور والتحقيقات الصحفية فقدت معانيها. .

صرخ سعد فى حدة:

- «لن تتزوج أختى من رجل لا نعرفه. . ».

قال المقدم زوج رندة:

- «إن لى صديقًا فى المخابرات العامة. . ».

هتفت فضيلة:

- «ماذا تقولون؟؟ إن الأمر يخصنى وحدى. . ».

رد سعد بحدة:

- «نحن كيان واحد».

وصمت برهة ثم استطرد :

- «ولهذا يجب أن نشارك فى صنع القرار» .

قالت فضيلة وقد عاد إليها هدوءها :

- «الزواج مسألة شخصية » .

نظر بحدة إليها ، وقال :

- «هل لديه شقة تصلح للزواج؟؟» .

- «شقة من غرفتين استأجرها منذ أن كان طالبًا» .

- «والمهر» .

- «لا أدرى» .

- «والإمكانات الاقتصادية للصرف على حياة الزوجية» .

- «سنتعاون . . » .

- «والسيارة؟؟» .

- «لم يحن وقتها بعد» .

دق بقبضته على الطاولة ، وهدر :

- «ستكونين الوحيدة بيننا التى لا تملك سيارة، ولا شقة محترمة. . إنك تتصرفين كالمراهقات. . ».

تمتمت وقد احتقن وجهها:

- «لم أعد صغيرة».

كان أبوهم الشيخ علام العيسوى طوال الوقت يستمع إلى الحوار وهو يداعب حبات مسبحته السوداء العريقة، مغمضًا عينيه، رافعًا وجهه السمح إلى أعلى نحو السماء، وابتسامة خفيفة تضيء قسماته الهادئة المطمئنة، ونظرت فضيلة إليه فى رجاء، وقالت:

- «أبى. . ».

قاطعها سعد فى إصرار:

- «عدمت الحجة، فلجأت إلى أبيك. . ».

- «لقد أبدى أبى رأيه وأنا مقتنعة به. . ».

- «هذا شأن كل أب حنون لا يريد أن يفجع أبناءه برأى مخالف».

وعادت فضيلة تهتف:

- «أبى . . أرجوك» .

طوقها الشيخ علام بيمناه ، وقبل رأسها فى حب ظاهر ، وتمتم :

- «الخيرة فيما اختار الله . . استفت قلبك وإن أفتاك الناس . . » .

همس سعد فى خبث :

- «وقديمًا قالوا : اختر لابنتك ، ولا تختر لابنك» .

قال الأب ضاحكًا :

- «أنت الذى اخترت يا سعد . . وأخواتك هن اللاتى اخترن . . أما أنا فقد اختار لى أبى رحمه الله ، وتعلمون كم كنت سعيدًا مع أمكم العظيمة . . والدليل على عظمتها أنتم . . لا أستطيع أن أرمى أحدًا منكم بالخطأ ، أو سوء الرأى ، أو سوء النية . . كل من تكلم أبدى وجهة نظر فيها الكثير من الصواب . . وإلى هذا الحد ينتهى دورنا . . بقى أن تفكر فضيلة فيما قلنا . . ثم تختار . . وعلينا جميعًا أن نحترم قرارها بعد ذلك . . » .

توجهت أنظار المجتمعين إلى الرجل الحكيم. . تحيط به هالة من جلال الدين وخبرة الدنيا، أمسكت فضيلة بيده وطبعت عليها قبلة أودعتها كل حبها واحترامها، وتساقطت من عينيها دمعتان على اليد المرتعشة. . وخشع سعد احترامًا وهيبة، أخذ يستعيد كلمات أبيه. . يا لها من كلمات تضع دستورًا فريدًا للحوار والتعامل. . وتمتم سعد:

- «أبى. . أنت موجود. . ولكننا نفتقدك. . ».

نظر إليه أبوه قائلاً فى رقة:

- «ماذا تقصد يا سعد؟؟».

- «أقصد أنك الحل لكل مشاكلنا المستعصية. . لمن لا يعرفك أحد خارج دائرتنا. . إننى أتخيلك رئيس تحرير لصحيفتنا. . لا. . بل رئيس للدولة كلها. . ماذا سيكون مصيرنا. . ».

قهقه الشيخ فى سعادة، وقال:

- «أوه يا سعد. . لكل زمان دولة ورجال. . والشباب أقدر على حمل المسئولية. . كان «سعد باشا» رجلاً قديرًا

بحق، ولهذا سميتك على اسمه. . كان شجاع الرأى، لكنه لم يكن مطية للانفعالات الهوجاء. . لم يفحش، أو ينتقم، أو يريق الدماء. . ».

وأكمل سعد فى حماسة:

- «ولم يسق الضحايا إلى ظلمات السجون».

قال سيادة المقدم:

- «لا تظلموا الثورة والأفضل ألا تتحدثوا فى السياسة أمامى. . إن حركة سعد زغلول كانت خاوية من المضمون الاجتماعى. . ».

قال الشيخ الجليل:

- «المضمون الاجتماعى!! هذا عجيب!! من قال ذلك؟؟ المؤرخون؟؟ وأين هم؟؟ فى زمن كهذا لا يوجد تاريخ صحيح. . ».

قال سعد دون اكتراث:

- «التاريخ أعمال لا شعارات. . ».

أردف الشيخ متفكهًا:

- «لماذا تركتم الزواج وانسقتم إلى حديث الأفاعى؟؟».

تساءلت فضيلة فى سعادة:

- «أليس الزواج مضمونًا اجتماعيًا؟؟».

وضج الجميع بالضحك..

كانت فضيلة سعيدة بحكمة أبيها، لكنها فى الوقت نفسه لم تعد غاضبة من سعد أخيها، إن هناك بعض الحقائق التى كتمتها عنهم، لم تصرح بكل ما تعرفه عن الدكتور عادل، لم تجد من المناسب أن تكشف عن بعض تطرفه فى الآراء، ولا عن حدته فى الحكم على الأحداث، أو سوء ظنه فى الآخرين، ونقمته على الدنيا وما فيها من متناقضات، كانت موقنة أن هذه الهنات الفكرية والسلوكية فى خطيبها سرعان ما تزول عندما يقف على قدميه، وتتحسن أوضاعه المالية والوظيفية، ويصبح جراحًا شهيرًا، وأستاذًا كبيرًا يشار إليه بالبنان..

لقد انزاح عن كاهلها الكثير من العنت والخوف بعد أن فهمت أن أباها موافق، وإن باقى أفراد الأسرة لا يمانعون وإن كان لسعد بعد التحفظ المتعلق بالتحريات، وشعرت فضيلة

باطمئنان شامل يسرى فى حناياها ، وقد بدا ذلك واضحًا فى إقبالها على العمل بقسم الباثولوجيا ، وفى تعاملها المقبول مع زملائها وزميلاتها ، وتناولها الطعام فى شهية ، ونومها العميق الذى لا تتخلله الكوابيس المزعجة . . ما أسعدها ! ! إنها تمضى خفيفة سعيدة ، وكأنها تخطو فوق السحاب ومن حولها الزرقة الصافية والسكينة والجمال الأزلى . . كل شىء تراه يبدأ أجمل وأروع مما كان . . كم هى رائعة تلك الحياة . . لم تكن تدرك سر هذه السعادة من قبل .

●●●

دخل عليها الدكتور رشدى القصاص بمكتبها صباح أحد الأيام ، ردت على تحيته باقتضاب ، وانشغلت فى كتابة بعض الأوراق ، إنها لن تنسى تعليمات عادل بالنسبة لهذا الشخص . . هى تعرف أن رشدى شاب مهذب طيب ، لم يعلق بسمعته ما يشين طوال أيام الدراسة ، أو فى فترة الامتياز ، أو فى الشهور التى قضاها بقسم الباثولوجيا ، لكن الغيرة تأكل قلوب الرجال ، وتدفعهم لارتكاب الحماقات ،

ومن ثم أرادت أن تضع حداً لعلاقتها بزميلها رشدى . . أرادت أن تقول له إنها مخطوبة لعادل ، وإن عادل - كفلاح - يجد حرجًا بالغًا فى أن تتحدث خطيبته مع الآخرين ، أو تجلس معهم دون عمل رسمى ، كما أرادت أن ترجوه أن لا يسىء فهمها ، أو يتضايق من صراحتها ، وهمت بالحديث ، لكن رشدى قال فجأة :

- «ألم تسمعى عن فضيحة أستاذ الجراحة . . ؟؟» .

وبصورة لا إرادية هتف :

- «مَنْ؟؟» .

- «الدكتور زكى فودة» .

دق قلبها من الخوف ، إنه أستاذ خطيبها .

- «فضيحة؟؟» .

- «بل فضيحة . . وكارثة . . » .

شحب وجهها ، ورمت القلم والأوراق ، وهبت واقفة وهى تتمتم فى خوف :

- «امتحان عادل بعد يومين . . لكن ماذا جرى؟؟».

- «ضبطته زوجته فى شقة خاصة مع الحكيمة نادية عبد الباقى، وحدثت ضجة كبرى . . وتجمع الجيران . . وجاءت الشرطة والنيابة . . وأصيب الدكتور زكى بنوبة قلبية . . وهو راقد الآن فى غرفة الإنعاش . . وما زالت النيابة . . ».

صرخت فضيلة:

- «وعادل؟؟».

هز رشدى رأسه قائلاً:

- من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . . أتعرفين قصة بائع المسك . . ونافخ الكير . . ».

هرولت خارجة . .

كانت تريد أن تطمئن على عادل، وتريد أن ترفع من روحه المعنوية بالنسبة للامتحان، إن بقلبها خوفًا من نوع غامض لا تدرى كنهه . .

●●●



سماء القصر العينى تمطر شائعات، والهمس يدور فى أروقة المؤسسة العلمية العملاقة، وتختلط الحقيقة بالخيال، وتمتزج الأباطيل بالصدق، وتنسج من الأوهام تفاصيل حكايات مثيرة، وانتقلت الأقاويل من الأطباء والحكيمات إلى المرضى والزوار، وكتبت إحدى الصحف خبرًا مقتضبًا دون ذكر أسماء بطريقة تلهب حب الفضول لدى القارئ..
والعميد عقد اجتماعًا لمجلس الكلية، وطلب مدير الجامعة - جامعة القاهرة- معلومات عن الموضوع، وتضاربت الأقوال والأخبار، وحينما ذهبت فضيلة للقاء الدكتور عادل لم تجده فى غرفة العمليات، وعلمت أنه ملازم لغرفته فى السكن، كلمته فى الهاتف إذ ليس من المعقول أن تذهب إلى سكن الأطباء الرجال؛ لأنه لم يجر العرف بذلك، قال لها: إنه

يعانى من نزلة بردية حادة، وإنه لا يستطيع العمل اليوم، وألمحت إلى الشائعات، لكنها لم تجد لديه رغبة فى الحديث، وعزت ذلك إلى الوعكة التى ألمت به، وإلى توتره بسبب الامتحان، تمنت له الشفاء والتوفيق، وانصرفت والقلق يسيطر على حركتها وسكناتها، وأثناء ذهابها وإيابها سمعت الكثير عن الحادث المثير، ووجدت نفسها مدفوعة لرؤية الدكتور زكى فودة، ودخلت إلى قسم الإنعاش محرجة، ووجدت من يقول لها: «ممنوع الزيارة، وممنوع التواجد هنا لغير العاملين بالقسم»، فانصرفت معجلة، لكنها لمحت الطبيب الكبير يرقد خلف الحاجز الزجاجى، وقناع «الأكسجين» على وجهه، وحوله نخبة من كبار الأساتذة.

ومن خلال ما سمعته من شائعات استطاعت الدكتورة فضيلة أن تتصور فكرة عامة عما جرى، تخيلته على هذا النحو: الجراح الكبير على علاقة آثمة -هكذا قيل- بالحكيمة الرئيسة نادية عبد الباقى، وأن ذلك يجرى فى الخفاء منذ فترة طويلة، ويرجح البعض أنه قد تزوجها، ومن قائل بأنه اشترى لها فيلا فى «الدقى»، وأن السيارة الصغيرة

التى تركبها هدية منه، ويزعم آخرون أن زوجة الأستاذ كانت على علم عام بالموضوع، وأنها حاولت الانتحار ذات مرة، وإن العلاقات بين الأستاذ وأولاده كانت فى حالة من التوتر الدائم، ويقال أيضًا: إن العميد قد بلغته أنباء عن ذلك، وقدم النصح والتحذير للأستاذ، بل أشار عليه بنقل الحكيمة نادية إلى قسم آخر، فرفض.. هل هذه الشائعات صحيحة؟؟ لا أحد يدرى، لقد أصبح الناس يطلقون الكلام على عواهنه، ولا يربطون ألسنتهم إلا بالنسبة لشىء واحد: السياسة.. إن كلمة واحدة فى نقد الحاكم أو الحكم، أو إبداء رأى سياسى مخالف، قد يلقى بصاحب الرأى وراء الشمس كما يقولون.. كل شىء مباح إلا الخوض فى السياسة.. وهذا لا ينفى أننا نعيش فى عصر الحرية والديمقراطية!!

وعلى الرغم من الحالة الصحية السيئة التى يعانى منها الدكتور زكى فودة، إلا أنه أصر على الانتقال إلى مستشفى خارج الدولة، لكن كان دون ذلك صعاب جمة على رأسها أن حالته ليست من الحالات التى يستعصى علاجها فى

مصر، ثم صعوبة الحصول على العملة الصعبة إذا ما فكر فى السفر على حسابه، وأمكن أخيراً نقله إلى مستشفى «المعادى» الكبير، وهو من أعلى المستشفيات مستوى ومكانة. . ولم تهدأ العاصفة. . لقد كان هناك تحقيق يجرى فى الخفاء. . وتكاثر اللغط. . واستدعى عدد من العاملين فى القسم حكيمات وأطباء.

انهار الدكتور عادل فتوح حينما سمع من نائب القسم عبر الهاتف أنه مطلوب لأخذ أقواله. . يا للكارثة!! هل انكشف الغطاء، وظهر ما كان خافيًا؟؟ الامتحان غداً. . وماذا سيقول الناس عنه. . وبالذات ماذا ستقول فضيلة. . واكتسحه غضب مدمر، فأخذ يدق الحائط بيديه ورجليه ورأسه، ويحطم الأكواب الزجاجية. . ثم ألقى بجسده المنهك فوق السرير الصغير والعرق يتقاطر فوق جبينه، ويبلل ملابسه الداخلية على الرغم من جو الشتاء والسحب التى تغطى زرقة السماء الأصيلة.

أخذ قرصين من الفاليوم. . إنه يحتفظ بالفاليوم معه دائمًا. . هو العصا التى يتوكأ عليها، عندما تستبد به

الهـموم، وتخـور قـواه، ولا تستطيع ساقـاه أن تحمـلاه . .
لأول مرة يشعر أنه تافه حزين عاجز، وأنه يهوى إلى قرار
سحيق . . سحيق يدمر حياته ومستقبله وكبرياءه . . شعر
لأول مـرة شعـورًا عـميـقًا غـالبًا بأنه فى حاجـة إلى الله . .
وصرخ والدموع تغرق وجهه:

- «أين أنت؟؟ أنا عـبـد ك الضـائع المسكين . . ألا
ترحمني؟؟ ضـحيـة الغـفلة أنا . . أعـرف أنك بجـوارى . .
لكن يكاد الجنون يقتلنى . . رأيت أبى يناجيك فى الليل . .
التوبة . . ولن أعود أبدًا . . لن أعود . . » .

وأخذ يجفف دموعه وقد هدأ قليلاً . . تنهد، ثم ارتدى
ملابسه، وأسرع نازلاً، وكان يقفز فوق الدرج، وتعمد أن
يتسلل من باب خلفى كى لا يراه أحد، وأشار إلى «تاكسى»
وغاص فى شوارع المدينة المكتظة . .

أمام وكيل النيابة جلس شاحبًا . . قلبه يضرب بقوة،
وقطرات العرق تندى الجبين الأسمر . . «افتح المحضر» . .

سأل وكيل النيابة:

- «أتعرف الحكيمة نادية عبد الباقى؟؟» .

- «بالطبع . . زميلة فى العمل . . » .

- «ألم تزرها فى مسكنها؟؟» .

هنا توقف ، ازداد خفقان قلبه ، أخرج المنديل الأبيض من جيبه ، وأخذ يجفف عرقه فى اضطراب ، ويقول :

- «كلا . . ولماذا أزورها؟؟» .

ركز وكيل النيابة بصره فى عينيه اللتين تحاولان الهرب . .

- «لكنها قالت : أنك زرتها . . » .

- «مجرد الزيارة ليس جريمة ، لكنى لم أزرها . . » .

أشار وكيل النيابة إلى أحد معاونيه قائلاً :

- «أدر الجهاز . . » .

ودار جهاز التسجيل ، ودارت معه رأس عادل . . موسيقى ، ضحكات خليعة . . حوار . . . «يا إلهى إنه صوتى» .

- «أهلاً عــادل بك . . هـا أنت ترى جنتى مــفــتــحــة الأبواب . . تستطيع أن تدخل . . يا مرحبًا يا مرحبًا . . قيس ابن عمى عندنا . . يا مرحبًا يا مرحبًا . . » .

تذكر عادل على الفور . . صرخ :

- «كفى . . أغلقوا الجهاز . . » .

جاءه صوت المحقق :

- «انتظـر . . نـحـن لا نـتـلـقـى الأوامــــــر منك . . من الضرورى أن تسمع حتى نختصر الوقت . . » .

طأطأ رأسه فى ذل، وسمع هذه المرة صوته :

- «إن قلبى يرتجف . . مـاذا لو جـاء الأسـتـاذ الآن؟؟ إن هذا لو حدث فسيدمر مستقبلى . . » .

- «يا أبله . . هذه ليلتك . . أنت لى . . وأنا لك . . » .

- «يا نادية . . إننى عاجز . . الخوف يقتلنى . . » .

- «إن كـأسًـا من الويسكى ستبدد كل خوف . . خذ . .

اشرب إن أستاذك خاتم فى إصبعى . . لقد أحضرت لك أسئلة الامتحان» .

أخذ عادل يدق المكتب بقبضته فى هستيرية ويصيح :

- «هذه أمور شخصية . . وأنا لم أرتكب جرمًا . . » .

قال المحقق بنبرة واضحة منخفضة :

- «ألا تعتبر تسرب الامتحان جريمة؟؟» .

- «لم آخذ من نادية شيئًا ، والامتحان لم يُعقد بعد» .

- «والدعارة» .

- «التسجيل ليس دليلاً قانونيًا . . » .

- «لكن الصوت صوتك . . » .

- «ليكن . . وليس هناك ما يديننى . . » .

قال المحقق :

- «نحن نقدر حرج الموقف ، ودقة الوضع ، ولهذا فرضنا ستارًا من السرية التامة على التحقيق . . نادية ليست

قاصراً . . وأنت كذلك . . والأستاذ أيضًا . . الأمر ليس على هذا النحو من الخطورة . . » .

هدأت نفسه قليلاً . .

استدعيت نادية عبد الباقى ، سألها المحقق :

- «هل زارك عادل فى البيت؟؟» .

- «أجبت قبل ذلك على هذا السؤال» .

- «هذه مواجهة . . أجيبى مرة أخرى . . » .

- «نعم زارنى . . » .

- «ما مدى العلاقة التى تربطك به؟؟» .

- «أصدقاء . . » .

- «لكن التسجيل يشير إلى أكثر من الصداقة . . » .

- «ماذا تقصد بأكثر من الصداقة؟؟» .

- «الحب مثلاً . . » .

- «نعم أحبه . . وهذا ليس ممنوعًا قانونيًا . . » .

هتف عادل في غضب:

- «هذا وهمٌ.. كانت مجرد علاقة عمل من جانبي..».

ابتسمت نادية في سخرية، وقالت:

- «أصبح الحب جزءاً من العمل، لن تجرحني كلماتك، فأنت في موقف حرج.. كلانا يعاني..».

تدخل المحقق قائلاً:

- «لا تنكر أنك زرتها..».

- «لم يحدث..».

- «والتسجيل..».

- «التسجيل ليس قرينة.. لكن ألا يمكن أن يتم التسجيل في أي مكان آخر؟؟».

قال المحقق:

- «وما رأيك في سلوكيات الأستاذ زكي؟».

- «عالم متمكن، وجراح ماهر، وأستاذ قدير..».

-«أسألك عن سلوكياته..».

- «ليس لدى المقدرة أو المعلومات التى تؤهلنى للإجابة عن هذا السؤال».

وعاد المحقق يقول:

- «لقد ضبطه بوليس الآداب متلبسًا..».

- «هذا لا يخصنى..».

- «ونادية اعترفت بعلاقتها الخاصة به..».

- «لا شأن لى بهذا..».

- «ألم تخبرك نادية بنوعية العلاقة معه؟؟».

- «ولماذا تخبرنى أنا بالذات؟؟».

- «لأنها تحبك..».

- «حتى لو حدث، فما شأنى به؟».

- «لقد تحولت يا دكتور من مسئول إلى سائل».

- «قد يكون فى سؤالى إجابة عن سؤالك . . إنى أختار الكلمات التى تناسب المقام . . » .

تدخلت نادية مرة أخرى قائلة :

- «الدكتور عادل مظلوم . . وما ذنبه إذا كنت أنا التى أحبَّته؟؟ ألا يجوز أن يكون حبًا من طرف واحد؟؟» .

قال لها المحقق :

- «ألم تقومى بنفسك بتسجيل تلك اللقاءات؟؟» .

- «لم يحدث . . » .

- «وبماذا تفسرين وجودها فى شقتك؟؟» .

- «الحاقدون كثيرون . . ولست أعرف من دسها على . . » .

- «لكن الأصوات واضحة فى الدلالة على أصحابها . . » .

- «مجرد كلام . . » .

- «ألا يدل الكلام على شىء يا نادية . . » .

- «المهم الفعل يا سيادة المحقق . . » .

- «والتلبس؟؟» .

- «هذا أمر آخر غير التسجيل . . التلبس كان مجرد مداعبات سمجة ثقيلة . . ألم أكن فى حالة اضطراب أو دفاع عن النفس؟؟» .

نظر إليه، المحقق فى اهتمام، وقال :

- «فسرى كلامك . . » .

- «إنه واضح يا سيادة المحقق . . أستاذ كبير . . يملك مصيرى . . وأهدانى سيارة . . وشقة باسمى . . وأغدق على ما أنا محرومة منه . . أليس لهذا كله من ثمن؟؟ أكثير عليه أن ينال بعض الرضى والمداعبات . . من يدفع يأخذ . . ذلك هو عصرنا . . أقذر العصور . . » .

التفت المحقق إلى عادل قائلاً :

- «تستطيع أن تنصرف الآن . . لكن تذكر أن أسئلة الامتحان قد تغيرت . . » .

رد عادل فى برود بعد أن اطمأن قليلاً :

- «هذا أمر لا يخصنى . . ولا تنس يا سيادة المحقق أننى كنت أول دفعتى . . وسأظل الأول دائمًا» .

تمتم المحقق :

- «قل إن شاء الله . . مع السلامة . . » .

مشى فى الطريق المزدحم دون هدف ، كان يريد أن ينفث عن كربه وأساه ؛ شهيق . . زفير . . شهيق . . زفير . . إنه يمضى مفتوح العينين دون أن يرى شيئًا محددًا ، الناس من حوله أشباح ، وكذلك السيارات والبنايات ، إنها أشبه بالأحلام التى يراها فى منامه وكوابيسه . . تعست الحياة هنا . . كل أفعال البشر جرائم . . الكلام . . والحب . . والجنس . . والعلاقات . . لماذا لا يضعون القيود على هذه الأشياد فى أوربا وأمريكا مثلاً؟؟ إننا نعيش فى عالم من قيود وسدود . . أهى الغيرة على الشريعة؟؟ كذبوا . . فهم يذبحون الشريعة كل لحظة . . أم احترام القانون؟؟ أين هو القانون؟؟ إنه إرادة الأقوياء المتسلطين . . ورنت فى أذنه

كلمة «الأقوياء المتسلطين» . . إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يكون واحداً منهم . . لكن كيف؟؟ إنه ليس ضابطاً، ولا قرابة له بأحد من رجالات الثورة أو الحكم، ولا يمت بصلة لواحد من رجال المخابرات أو الفن . . لو وصل!! آه لو وصل!! عندئذ تُحَلُّ جميع مشاكله، ويصبح في مأمن من أي خطر . . وينالك الحصانة التي ما بعدها حصانة . . عندما وصل الكلية فوجئ بحشد كبير في قاعة المحاضرات الواسعة . . مكبر الصوت يضج بالكلمات المتحمسة والهتافات الصاخبة . . تساءل ما هذا؟ ألا تعلم؟؟ غداً يوم النصر . . الثالث والعشرين من ديسمبر . . الله أكبر . . إنها فرصة لا تعوض . . واقترب من مكبر الصوت . . ووقف عند المنصة . . واستأذن . . ووسط دهشة الجميع أخذ يهتف بقوة:

عاش بطل التحرير . .

عاش بطل النصر . . عاش قاهر العدوان الثلاثي الغاشم . . بطل الجلاء . . الرئيس القائد . . باعث القومية العربية . . أبو الوحدة . . رائد الاشتراكية . . يسقط الخونة

أعـداء الشـعب . . لا رجـعيـة بعـد اليوم . . يسـقط أذناب الثـورة المضـادة . . نـحن فـداؤك يا زعـيم . . عـاش بطل الحرية . . فلسطين عربية . . الموت للخونة . .

ثم ألقى خطبة عصماء، واختتمها بأن اقترح إرسال برقية لسيادة الرئيس، ولرئيس الوزراء، وللاتحاد الاشتراكى و . . و . . . و . .

حينما عاد إلى مسكنه كان منهكًا تمامًا . . لم يكن راغبًا فى طعام أو شراب . . كان فى شبه غيبوبة تشبه إلى حد كبير غيبوبة الويسكى عند نادية عبد الباقى التى تلقى على يديها الدرس الأول فى الخمر والجنس وفن الاتصالات الاجتماعية المفيدة . . وتذكر أن الامتحان غدًا . . ليكن . . فهو متين فى استعداداته ومعلوماته . . ووجد لديه رغبة قاهرة فى النوم . .

رفع سماعة التليفون . . ثم نام . . نام بعمق . .

●●●

[٦]

لفتت تصرفات الدكتور عادل أنظار مَنْ فى الكلية، وخاصة مندوب الأمن الذى يتيع المباحث العامة، ومهنة مندوب الأمن متابعة النشاط السياسى فى كل كلية، وحصر أسماء الطلبة -بل الأساتذة- الذين يبدون أدنى شكل للمعارضة، أو التبرم بتصرفات الحكومة، ومن ناحية أخرى، فإن هذا المندوب يقوم بالتعرف على المؤيدين للرئيس فى سياسته، ويبسط عليهم حمايته وتأهيلهم للمهام السياسية بين أوساط الطلبة، ويمدهم بالتعليمات والتوجيهات التى تخدم فكر المسئولين وسياستهم العامة، وبالطبع لن يتم ذلك إلا فى إطار «تنظيم سرى خاص» يلتزم بأوامر المباحث -أو المخابرات- فلكل تشكيلاته ورجاله.

وفوجىء عادل فى المساء بمن يدق باب مسكنه حينما كان

جالسًا يراجع بعض الموضوعات، استعدادًا لامتحان الغد التحريرى، وظن فى البداية أن الطارق أحد زملائه، ولهذا شعر بالضيق لأنه يريد أن ينفرد بنفسه هذه الليلة بالذات، لعله ينسى ما حدث له من تحقيقات أثناء النهار، وحينما فتح الباب وجد أمامه أحد ضباط الحرس الجامعى، وعاد قلبه يدق خوفًا.. ترى ماذا هناك؟؟ هل سيستدعيه العميد هو الآخر لمجلس تأديب؟؟ إن الكوارث لا تأتى فرادى!!

قال الضابط:

- «آسف لإزعاجك.. ما جئت إلا لأمر فيه مصلحتك»

اطمأن عادل قليلاً، وقال:

- «تفضل..».

- «الوقت ضيق.. وسيادة الرائد يريدك على عجل».

- «أى رائد؟».

- «سوف تعرف كل شىء.. هيا بنا».

وعاد قلبه يدق، وجبينه ينضح عرقًا، تلك هى

الاستدعاءات التى لا يستطيع أن يرفضها أو يعتذر عنها، لكن ليته يعرف ماذا وراء هذا الاستدعاء، لكن الملعونة نادية عبد الباقى سوف تحيل حياته إلى جحيم، إن لم تكن قد فعلت حقًا. . «يا إلهى أى عذاب هذا؟؟».

انحنى أمام الرائد، وصافحه باحترام، وجلس معه وحيداً فى غرفة خاصة، وظل مبحلقًا ينتظر على أحر من الجمر، بينما الرائد -الذى يرتدى الزى المدنى- يقلب فى بعض الأوراق، ويسجل بعض الملحوظات، ويخطط تحت بعض الكلمات. . خير لعادل أن يعتصم بالصبر، ويجيب على قدر السؤال، ولا يتطوع بالمزيد، إنه يعرف رجال المباحث العامة، ما أكثر ما يروى عنهم!! إن كلمة تقال قد ترفع قائلها إلى السماء، وأخرى قد تهوى به سبعين خريفًا فى جهنم. .

قال الرائد دون أن يرفع عينيه عن الأوراق:

- «أين كنت طوال السنوات الماضية؟».

- «هنا يا سيادة الرائد. . قلما كنت أذهب إلى قريتى للزيارة. .».

- «لا أقصد المكان يا دكتور . . بل أقصد الفعل . . النشاط . . » .

- «كان العلم يشغل معظم وقتي . . » .

- «وأمن البلد؟؟» .

- «الجميع يعرف مدى إخلاصي وصدقي للثورة وقائدها . . ؟» .

نحى الرجل الأوراق، ثم تنهد وأشعل سيجارة فاخرة، وقال :

- «نحن نفرح بالأذكياء المخلصين من أمثالك . . » .

- «شكراً يا سيدي . . » .

- «وأول شيء نفكر فيه يا دكتور عادل هو أن نضعهم في المكان الصحيح لخدمة بلدهم وتأمينها . . » .

- «بالضبط يا سيدي . . » .

- «والكفاءة والثقة كيان واحد» .

- «نعم . . نعم؟» .

- «وأنت كفء . . » .

وأضاف عادل فى يقظة :

- «وحمل ثقة يا أفندم . . » .

ابتسم الرائد لسرعة بديهته، ثم أردف :

- «إننا فى موقع المسئولية الكبرى . . ووضعنا يتيح لنا رؤية أوسع وأعمق، فهناك الكثير من الأمور التى تخفى على البلهاء . . إن رؤوس الفتنة ترتفع، وخاصة بعد جريمة الانفصال فى سوريا، وإصدار القرارات الاشتراكية، واتساع نطاق حرب اليمن، وألاعيب أمريكا وإسرائيل . . » .

قال عادل فى حماس :

- «إن حرية القرار التى يمتلكها رئيسنا تثير حقد الاستعمار والإمبريالية والأذناب . . » .

- «بالضبط . . ومن هنا . . » .

صمت الرائد برهة، وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم تابع قوله :

- «ومن هنا كان علينا أن نفتح عيوننا جيداً. . وأن نجهض أية تحركات عدائية قبل حدوثها. . الأغنياء يتهموننا بالقسوة فى ضرب المعارضين وتشتيت شملهم وسجنهم ومراقبتهم. . لو لم نفعل ذلك لضاعت مكاسب الشعب. . لسنا يميناً ولا يساراً. . نحن العروبة. . ومصر. . والاشتراكية. .».

شعر عادل بمزيد من الاطمئنان والارتياح، لقد نجحت خطته بالأمس، إن دموعه التى سكبها، والدعوات التى رفعها إلى الله فى عليائه، قد استُجيب لها. . ولذلك قال فى ثقة:

- «إننى أحفظ الميثاق عن ظهر قلب. . واسمح لى أن أقول بأنى مدمن لخطب الرئيس. . أستمع إليها فى شغف. . وأشعر أن كلماته الصادقة تتحول فى داخلى إلى عقيدة وسلوك وعمل. . ومن حسن حظى أننى لم أنتم لأية منظمات خارج نطاق الثورة طول حياتى. . أنا ابن الثورة. . وأبى فلاح فقير. . والثورة علمتنى وقدمت لى المساعدات. . لا عيب أن أعترف بأننى كنت أتقاضى معونات شهرية من وزارة الأوقاف. .».

ابتسم الرائد فى ارتياح، وقال:

- «لدينا ملف كامل لكل طالب.. أتريد أن تعرف آخر المعلومات عنك؟؟».

لم يجب عادل، وعاد قلبه يخفق.. هذا العضو الحساس فى جسده يستجيب لأى إثارة أو إشارة..

قال الرائد:

- «موضوع نادية عبد الباقى..».

انتفض عادل كمن لدغته حية، وهب واقفًا فى ذعر، وقال:

- «أقسم لك أنى مظلوم.. إنها ظروف صعبة، كيف أوضح لك؟؟».

قهقه الرائد، وقال ببساطة:

- «هذا أمر تافه، ولا يهمنا الالتفات إليه..».

- «الحاقدون كثيرون يا سيدى».

- «أعرف . . » .

- «والشائعات تقلب الحقائق . . » .

- «نحن نعانى منها . . » .

- «إنها محاولة بشعة للقضاء علىّ . . » .

- «عندى محاضر التحقيق كلها . . » .

شحب وجه عادل . . يا للكارثة . . إن الشكوك تحيط به . . كيف يبرئ نفسه . . النيابة شىء . . وهنا شىء آخر ، فى النهاية قرائن وأدلة وقانون . . وهنا الأمزجة وحدها والشكوك هى أدوات الإدانة . . أيعترف بالقصة كاملة كما حدثت؟؟ لا . . لا . . سوف يضيع كل شىء إن أقدم على هذه الخطوة الرّعناء ، عليه أن يتشبث بالإنكار :

وجاءه صوت الرائد :

- «هذه أمور لا علاقة لنا بها . . نحن نعمل فى مجال آخر ، ولا ندين الناس لمجرد علاقات نسائية أو جنسية تحدث مليون مرة كل يوم بين الناس . . » .

قال عادل وهو يجفف عرقه:

- «كل ما أحرص عليه هو ثقتك فيّ..».

- «هذه ليست محل شك.. من الطبيعي أن تثور الغرائز، وينفث الرجال عن كبتهم.. ألست رجلاً؟؟».

وأخذ الرائد يقهقه في سعادة، وخرج عادل من توتره وهمومه وأخذ هو الآخر يقهقه..

قال عادل وهو ينحني شاكرًا ويأخذ السيجارة:

- «ولو أني لا أدخن إلا أني أقبلها منك بسرور..».

- «عربون الصداقة إذن..».

وأخذ الرائد يشرح لعادل مهمته الجديدة، سوف يكون رئيسًا للتنظيم في الكلية، وسيعقد له اجتماع بالداخلية ليلتقي فيه بزملائه في التنظيم، أخذ يشرح له أيضًا تفاصيل العمل والمراقبة والتقارير الدورية، وتسجيل كل صغيرة وكبيرة تحدث من الطلبة أو الأساتذة، وركز الرائد بصورة خاصة على التيارات الإسلامية -الإخوان المسلمين-

والشـيـوعـيـين وأبناء رجـال المال والأعـمـال ، وأبناء أسـر الإقطاع القديم والأحزاب القديمة . .

وأبدى عادل تفهمًا سريعًا لكل ما يراد منه . .

وقبل أن ينصرف عادل استجمع شجاعته ، وقال :

- «هذه القضية تؤرقنى . . » .

- «أية قضية؟؟» .

- «فضيحة نادية عبد الباقى . . » .

قال الرائد بهدوء :

- «لا تفكر فيها . . إنها أتفه مما تصور . . » .

- «إذا نجـوت من النيـابة يا سـيـدى ، فـهناك مـجلس التأديب فى الكلية . . ثم فى النقابة . . » .

- «قلت لك لا تهتم يا دكتور . . » .

- «أمرك . . » .

وعندمـا كـان عـادل يصـافـحـه ، ضـغط الرائد على يده مؤكدًا ، وقال :

- «سوف يصدر أمر منا بحفظ التحقيق نهائيًا . . ليس من المعقول أن تكون جامعة القاهرة العريقة، وكلية الطب بالذات مادة للقيل والقال . . إنها سمعة الجامعة . . بل سمعة البلد كلها . . بل أستطيع القول بأن الأمر يتعلق بنا كثورة . . وأمن الثورة . . إن فضيحة كهذه تسيءُ إلينا أكثر مما تسيء إليكم . . وتأكد أنه لن يمسّك أحد بسوء . . وكذلك نادية . . » .

قال عادل فى فرح :

- «والأستاذ زكى؟» .

- «سوف يحال للتقاعد . . » .

- «لإدانته؟؟» .

- «لا . . بل لأنه كثير الكلام، ولا يتحفظ فى نقده للحكومة . . نعرف ذلك عنه من زمن، ولولا أنه لا يتمتع بأى تأثير اجتماعى، ولا صلة له بأية تنظيمات لاعتقلناه . . إنه شخصية لا وزن لها . . لكنه فى الحقيقة جراح ماهر . . » .

مع السلامة . .

انحنى عادل فى احترام وسعادة، ثم اتخذ سمته صوب الباب.. جاءه صوت الرائد:

- «كل ما جرى بيننا سرى للغاية لا يصح أن يعرفه أحد..».

- «أعرف يا سيدى..».

- «إفشاء السر جريمة.. جريمة من نوع الخيانة العظمى..».

- «بالتأكيد.. بالتأكيد..».

- «واذهب إلى الامتحان بشجاعة.. أنا واثق أنك ستنجح..».

- «صحيح؟؟».

قهقه الرائد:

- «نحن أقوى من نادية ألف مرة..».

سار فى الطريق منتفخ الأدواج، منفوش الريش كالطاووس، إنه الأقوى، من يجرؤ بعد اليوم على التصدى

له؟؟ إنه قادر على النيل من أية شخصية، كلمة منه تقذف بأى خصم إلى الأقبية السوداء، هؤلاء الأوباش الحاقدون لا يحترمون إلا القوة، وسأسحق كل من يعترضنى. . حتى عمى لن أغفر له إساءته لأبى!! جاء أوان الأخذ بالثأر، ما أعذب الشعور بالاقتدار. . لقد تحررت من الخوف والكبت. . هؤلاء الذين يسيرون فى الشارع لا يعرفون من هو عادل فتوح!!

●●●

استيقظ من نومه فى الصباح مبكرًا، وتناول فطوره على عجل، ثم شرب القهوة مرتين، استعدادًا للذهاب إلى الامتحان، كان يشعر بالانتعاش والثقة فالجراحة حبه الأول، لقد درسها وطبَّقها عمليًا، ولن يستعصى عليه أى سؤال مهما كان. . وكان لقاء الأمس يزوده بطاقة هائلة من الشجاعة، وحينما خرج من سكن الأطباء، وجد الدكتورة فضيلة فى انتظاره، لقد جاءت مبكرة لتطمئن عليه وتشجعه.

- «هالو فضيلة» . .

قالت ضاحكة:

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . . » .

قال وهو يشمخ بهامته في أنفة:

- «فلنسمك الشيخة فضيلة إذن . . » .

سارت إلى جواره، وأخذت تلقنه بعض الدعوات المأثورة حتى يفتح عليه مغاليق العلوم وأسرارها، ويكتب له التوفيق.

قال لها:

- «وهل تجدى الدعوات بالنسبة لمن لم يذاكر؟؟» .

- «بالطبع لا . . لكنها ذات فائدة لمن ذاكر . . » .

- «السماء لا تحابى أحدًا يا فضيلة . . أو يا صاحبة الفضيلة . . » .

تمتمت قائلة:

- بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

- «ولكنى لم أصل الصبح..».

هتفت فى ضيق:

- «لماذا؟».

- «نسيت..».

- «فلتصل الآن..».

- «والامتحان؟؟».

- «هناك متسع من الوقت..».

غيّر مجرى الحديث، قال:

- «لم أرك بالأمس..».

- «كان الهاتف معطلاً.. ثم إنى لم أشأ أن أشغلك عن المذاكرة..».

أفهمها أنه هو الذى رفع سماعة الهاتف، كما أشار إلى أنه انشغل عن المذاكرة لأشغال مهمة، ثم قال دون حرج :

- «لقد استدعتنى النيابة . . » .

هتفت فى دهشة :

- «يا إلهى ! ! لماذا؟؟» .

- «قضية الدكتور زكى فودة» .

- «وما شأنك بها؟؟» .

- «لا تهتمي بذلك، مجرد شهادة عابرة . . » .

- «تعنى أنك . . » .

قاطعها قائلاً :

- «برىء تمامًا . . هذا أمر طبيعى، أكنت تعتقدين غير ذلك؟؟» .

- «الشائعات كثيرة . . » .

- «ضعيها تحت حذائك . . » .

- «إنها قضية خطيرة.».

رد دون اكتراث:

- «ستُحفظ.. سيُهالُ عليها التراب».

- «كيف عرفت؟؟».

نظر إليها من علٍ، ثم أضاف:

- «وسيحال الأستاذ للتقاعد».

- «غير معقول..».

- «إلى اللقاء يا صاحبة الفضيلة..».

وضحك.. وضحكت.. ومد خطواته مسرعًا، تاركًا فضيلة واقفة وحدها تفكر..

●●●

[٧]

دار الهمس هنا وهناك، بعد أن منع نشر أى شىء عن الفضيحة، وتناقل الناس خبر حفظ القضية، وإحالة الأستاذ إلى الاستيداع، لكن الشىء الغريب أن باقى من حامت حولهم الشبهات عادوا إلى مواقعهم الأولى، نادية عبد الباقى بقيت بقسم الجراحة، والذين استدعوا للشهادة كعادل فتوح وغيره لم يمسوا بأذى، واختير لرئاسة القسم أستاذ جديد، وانطلقت شائعات مضادة تزعم أن القصة كلها ملفقة، وأن التى دبرتها هى زوجة الأستاذ المحال إلى التقاعد، وأن بعض الممرضات والأطباء لعبوا دوراً فى الإبلاغ وإشعال المأساة.. المهم أن عادل فتوح نجح فى الامتحان، ليس هذا فحسب، فقد أصبح من الشخصيات المرموقة فى الكلية، بل فى جامعة القاهرة، وصار يتصدر

الاجتماعات السياسية، والاحتفالات الرسمية، وأصبح أيضًا مشرفًا على اتحاد الطلبة، ورشح لأحد المناصب القيادية فى منظمات الشباب، كما كان يدعى للدورات التدريبية والتأهيلية التى يعقدها الاتحاد الاشتراكى فى القاهرة وحلوان والإسكندرية وغيرها، وأصبح ضليعًا فى الاشتراكية العلمية، وفقيهًا فى الميثاق، يستفتيه الناس فيفتى عن جدارة، أصبح من ذوى الرأى والاجتهاد فى العقيدة الجديدة، وتوالت أسفاره ضمن الوفود الرسمية للحزب الواحد، فزار لأول مرة فى حياته روسيا، ويوغوسلافيا، والهند، وتشيكوسلوفاكيا، وغيرها من دول عدم الانحياز، وأخذت صوره تنشر فى الصحف والمجلات، ويستضيفه التليفزيون والإذاعة، وتعرف على شخصيات كبيرة لها وزنها، وأخذ يحضر بعض الاجتماعات الخاصة التى يعقدها الرئيس، وبعد أن كان يحتمى فى كنف نادية عبد الباقى أصبحت هى التى تلوذ بحماه، وارتفع دخله بطريقة سريعة غير مفهومة، كما استطاع الحصول على شقة فاخرة، من شقق الحراسة بإيجار رمزى لا يتجاوز الأربعة جنيهات،

مع أنهـا تؤجـر شـقـة مـفـروشـة للسـواح من دول الخليج والجزيرة العربية بألف جنيه شهريًا، وتسابقت الجمعيات والتعاونيـة وشـركات القطاع العام إلى إرضـائه، وإعطائه البضـائع والكميات التى يريدها، وعرف- ببراعته كيف يستفيد ماديًا من ذلك كله، كما أصبح ذا تأثير فى الكلية، فيقوم بالتوصية على بعض الطلبة فى الامتحانات، وفى اختيار المعيدين، ومع ذلك كله أخذ يعطى بعض الدروس الخصوصية فى الجراحة للطلبة المقتدرين، على الرغم من أن لائحـة الجامعة تحرم ذلك، وأخذ يماطل فى موضـوع الزواج نظرًا لانشغاله بأمور مهمة أخرى خارج الكلية، وعلى الرغم من التوتر والضيق اللذين تعانى منها فضيلة إلا أنها اعتصمت بالصبر، ولم تكن فى عجلة من أمرها، إن مشروع الزواج ليس بالأمر السهل، ويحتاج بالتأكيد إلى استعدادات وترتيبات لا بد منها، وخاصة بالنسبة لرجل مثل عـادل فتوح الذى اتسعت دائرة اتصالاته على المستوى السياسى والعلمى أيضًا، لكن القلق يساورها، فـاهتمـاماته العـاطفيـة ضـمـرت، وإن لم تكن بردت،

وتحمسه للزواج يبدو فى بعض الأوقات فاترًا، والشكوك أخذت تعبث بمشاعرها، لكنها تكتم ذلك كله عن ذويها وأصدقائها . .

قال لها زميلها الدكتور رشدى القصاص :

- «عادل يصعد . . » .

- «وماذا فى ذلك؟؟» .

- «علامات استفهام كثيرة تحيط به من كل جانب» .

- «أهى الغيرة؟؟» .

- «أستغفر الله، بل هو فى وضع لا يحسد عليه» .

- «ماذا تقصد بالضبط يا رشدى؟» .

تململ فى مكانه محرجًا، وقال :

- «يقولون إنه كان وراء حرمان عدد كبير من المعيدين فى الحصول على حقهم . . » .

بدا الغضب على وجهها، وهتفت :

- «لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام الطائش، فالجامعة

لها تقاليدها وقوانينها، وعادل ليس أستاذاً فى قسم، ولا عضواً فى المجلس..».

أطال النظر إليها دون أن تطرف عيناه، وقال:

- «هناك موافقة جهات الأمن..».

- «تعنى..».

رد بسرعة قبل أن تكمل عبارتها:

- «بالضبط.. لأن تقريراً موجزاً من عدة سطور قد يعصف بمستقبل إنسان، حتى ولو كان أول الدفعة.. ولهذا فإن معظم الذين حرموا من وظيفة معيد كانوا من الإخوان المسلمين...».

قالت فى شىء من الحنق:

- «أنت من الإخوان.. أعرف ذلك.. ومع ذلك فأنت فى موقعك كمعيد.. ولم تمس بأذى..».

- «حدث ذلك منذ زمن.. وما أنا إلا مجرد مسلم يرعى حق الله والناس..».

قالت ويدها ترجف:

- «أنا لا أدينك لمبدئك، ولكن أنفى الشبهة عن عادل».

- «هذا طبيعى، فهو خطيبك».

- «ألا ترى يا رشدى أن الناس يخترعون الاتهامات بالنسبة لمن يحقق قدراً من النجاح؟؟ لكل مبادئه وطريقته فى الحياة.. قد تختلف فى الرأى.. وهذا أمر لا غبار عليه، إن عادلاً مؤمن بالثورة ومتحمس لها، والملايين يفعلون فعله.. ماذا فى ذلك؟؟».

هز رشدى رأسه قائلاً:

- «لم يكن يؤمن بشىء قط فى الماضى، اللهم إلا تحقيق التفوق العلمى.. ألا تعرفين؟؟».

كانت فضيلة تعتقد أن رشدى يقول الحق، على الأقل فى عبارته الأخيرة، إنها تتذكر حوارها معه منذ زمن، لكن التغيير يقع.. بل لا بد أن يقع فى يوم من الأيام. هكذا الإنسان، وليس هذا منتهى التغيير، من يدرى؟ قد يعود

عادل إلى سابق عهده فى السخط على الناس والسياسة والثورة والسخرية من كل ذلك، إنه انفعالى متقلب، لا أحد يدرى ماذا يجرى فى داخله، إنه -لا شك- حريص على النجاح بأى ثمن، ويريد أن يؤمن ظهره ضد طعنات الزمان الغادرة، لا يريد العودة إلى أيام الفقر، والخوف، والانتظار الطويل . .

أفاقت فضيلة من شرودها، وهتفت:

- «ولماذا تشغل نفسك به؟؟».

- «لأنى أشفق عليك . . وأبوك أستاذى وشيخى».

- «ولماذا تشفق على؟؟».

- «لله . .».

قالت فى شيء من الحرج:

- «أشكرك . .».

أردف قائلاً:

- «إن أوضاع العالم تؤرقنى . . أشعر أحيانًا أن مصير

كل مؤمن أمانة فى عنقى . . لا أستطيع أن أراه يسقط فى بئر عميق، أو ينجذب إلى نار عاصفة . . أو يهوى فى قاع الظلم والقهر . . إنى أتعذب من أجل الآخرين . . لا أدرى لماذا أقضى الليالى معذبًا أفكر فى الضحايا . . وإذا كانت هناك نصيحة أقدمها إليك كأخ، فهى أنك لست له . . وليس لك» .

انتفت واقفة ممتقعة . . إن رشدى يهدم كل أحلامها وآمالها ، وهى لا تطيق أن تتصور ذلك، وقلبها يرفضه . . يرفضه . . وعين الحب لاترى إلا الجانب المضىء من القمر . . صرخت فى هستيرية :

- «لقد كان عادل على حق حينما رجانى أن لا أتعامل معك أو أكلمك» .

رد فى هدوء :

- «أو فعلها؟» .

- «نعم . . وهو على حق . . إنك تُكن له كراهية بشعة . .» .

قال باسمًا :

- «علم الله أنى ما كرهته . . فقط أنقم على أسلوبه . . أنا لا أتكلم من فـراغ . . ولكن لدى أسـبـابى القـوية لإدانة تصرفاته . . » .

قالت فضيلة مجددة :

- «لا أريد أن أسمع المزيد . . » .

هز رأســه فى أسف ، وردد بضع كلمــات من القــرآن الكريم :

- « . . ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤] صدق الله العظيم . . » .

همّ بالقيام ، ومضى متثاقلاً إلى مكتبه ، كان يعرف عن يقين أن عادلاً منغمس فى الإثم حتى قمة رأسه ، فقد عادت علاقته المشبوهة مع نادية عبد الباقى ، واتسعت دائرة معارفه من النساء ، وخاصة فى نطاق الحزب والوسط الفنى ، وعنده الدليل الأكيد على أن عادلاً يكتب التقارير السرية ضد بعض

الطلبة وهيئة التدريس، وعلاقته القديمة برشدى كشفت الكثير عن نقائصه الفكرية والأخلاقية، كان رشدى أكثر الناس معرفة به، وأشدهم التصاقًا، عامله كالطبيب النفسى الذى يتدرج مع مريضه، لكن النكسة الأخيرة التى أصابت عادلاً جاءت على حين غرة، وأصبح الوقت متأخرًا لإنقاذه.. إنه يندفع كثور جامح مشتعل الغريزة، صاخب الغضب.. وتمتم رشدى بينه وبين نفسه:

- «إنى أحبها.. فليسامحنى الله.. لكنى لم أفترِ عليه.. لا أمل فى أن تعدل عن موقفها.. فليحمها الله.. إننى لا أستطيع أن أضع تفسيرًا لانجذابها إليه.. هى من طينة، وهو من طينة أخرى.. كيف يتآلف النقيضان؟؟ لكم يعز على أن يفترسها هذا الوغد.. كان الله فى عونك يا شيخى الجليل..».

كان رشدى كلما استبد به الكرب، أو اعتصرته الآلام النفسية، ارتحل صوب مسجد الإمام الحسين، هناك نسمات رخية تبرد انفعالاته، وهناك إيقاعات سماوية ملائكية تسكب النور فى وجدانه، البساط الأخضر يذكره بالجنة،

والقناديل الشفافة تميط عن نفسه الحيرة، وترتيل الآيات القرآنية يمتزج بفكره ونفسه، ويجعله يسبح فى آفق من الضياء، والصفاء، والفهم الواضح لأبعاد الأشياء وعلاقاتها وحركتها نحو المصدر الأزلى، ومهرجان الخشوع والسلام يبسط رواقه على المسجد كله، فى العيون دعاء، وعلى الوجوه ضراعة، وفى الأيدى المرتفعة إلى السماء أمل، يتوارى بريق الدنيا وإغراءاتها، وتهرب الوساوس الشيطانية، فلا تجد لها مكانًا فى الساحة الرقراقة الندية. .

أفاق رشدى من حلمه على صوت حبيب:

- «طالت غيبتك يا طبيب».

نظر. . إنه الشيخ علام العيسوى. . صديقه وأستاذه من قديم. . هو مرجعه فى الفقه والتفسير والتاريخ. . نبراته تشيع الاطمئنان والثقة فى نفسه. . أشرق وجه رشدى بالسعادة والرضا، واختطف اليد الطاهرة ليقبلها.

- «العفو يا بنى. . أستغفر الله. .».

وأخــذ يتــجــاذبان أطراف الحــديث فى انتظار أذان المغرب . .

فجأة قال الشيخ :

- «ما الذى يكربك . . إن فى عينيك سؤالاً . . » .

- «أجل يا شيخنا . . » .

- «العالم يموج بالأسئلة الحائرة؟» .

- «وماذا نفعل؟» .

- «ابحث عن الجواب . . ابحث . . » .

- «قد لا أجده . . » .

- «قلت لك ابحث . . السـؤال مـرض، والجـواب دواؤه . . ألم يقل حبيبنا المصطفى ﷺ : «ما أنزل الله داءً إلا وأنزل له دواء.. فتداووا عباد الله.. ولا تداووا بمحرم..» .

ترقرقت الدموع فى عينى رشدى، وخفض رأسه حياء، وأغمض الشيخ عينيه، وأخذ يتمتم :

- «.. ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢]..».

هز رشدى القصاص رأسه، وقال:

-«فهمت..».

- «ماذا فهمت؟».

- «إن للخفاء أسبابًا يعلمها خالق الأرض والسماء..».

تمتم الشيخ:

- «وعلمها للعبد الصالح، ولم يحط بها موسى نبى الله..».

ثم أخذ يطوح رأسه يمنة ويسرة، ويقول:

- «وعندما علم موسى الجواب، واستلم الدواء، وقال

له الخضر عليه السلام: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] لماذا؟؟ لأنه لم يستطع الصبر.. هذا هو النبى الإنسان، فما بالك بالإنسان الإنسان؟؟ رحلة الحياة الحقيقة هى فى البحث عن الجواب.. إنها متعة روحية رائعة..».

قال رشدى:

- «وأنت بعد هذا العمر الطويل، هل عثرت على الجواب».

- «تساؤلات كثيرة، وجدت عليها الجواب، وتساؤلات كثيرة لم أزل أبحث.. والعمر لا يكفى.. وما زلت أبحث..».

عاد رشدى يقول فى اهتمام:

- «ولماذا هذا العناء يا شيخنا؟؟».

- «لأن كثيرًا من الإجابات ليست هنا على الأرض.. سنجد الجواب الشافى فى الحياة الأخرى.. إن مائة عام نعيشها فى الدنيا ما هى إلا قطرة من بحر الخلود والأبدية فى الآخرة.. أليس هذا منطقيًا؟؟».

تمتم رشدى :

- «صدقت . . » .

وجلجل صوت المؤذن لصلاة المغرب : الله أكبر . . الله أكبر . . وتراص الناس صفوفًا منتظمة للصلاة ، كان رشدى مستغرقًا فى صلاته ، ناسيًا الدنيا وكل ما حوله ، يشعر بلذة من نوع غريب وهو يستمع إلى الآيات ، ويقرأ الفاتحة ، ويدعو بارئ الكون ، إنه لم ينظر إلى وجوه الواقفين جواره ، كان نظره وفكره ينطلقان إلى بعيد . . إلى عالم النور والصفاء . . وما إن انتهى من صلاته وختمها ، حتى سمع صوتًا إلى جواره يقول :

- «قم معى دون أدنى حركة أو صوت . . » .

أفاق رشدى ، ونظر إلى الرجل عن يمنيه :

- «مَنْ أنت؟؟» .

- «المسدس فى جيبى . . ووراؤك ثلاثة من رجالى» .

- «لماذا كل هذا؟؟».

- «قم. . وسر أمامنا. . وحذار. .».

- «ونحن فى بيت الله. .».

- «ولا حركة. .».

أدرك رشــدى على التـو حـقـيـقـة الموقف، ليس هذا بجديد، كل يوم يحدث أمر كهذا. . جاءه صوت الرجل:

- «مباحث أمن الدولة. . نحن وراؤك طول اليوم. .».

- «أعرف. .».

تلفت رشدى حواليه، لم يجد أثرًا لشيخه الجليل، لكنه صرخ مع ذلك قائلاً:

- «يا سيدى. . أنا ذاهب للبحث عن الجواب. .».

وكزه الرجل بغضب، وقال:

- «من تخاطب؟؟».

- «سيدى».

- «أى سيد..».

ضحك رشدى قائلاً:

- «الحسين..».

- «هل أصبت بلوثة؟؟».

لم يجب، ومشى مستسلمًا لمصيره.

●●●



تبحث فضيلة عن السلام الحقيقى فلا تجده، لماذا تخدع نفسها؟ كل ما حولها ينبئ عن القلق، فقلبها غير مطمئن، والقاهرة تموج بالكثير من الأحداث والأنباء، حتى أبوها عاد بالأمس كابيًا حزينًا على غير عادته، وسيادة المقدم زوج أختها رندة لم يستطع الحضور إلى البيت منذ عشرة أيام بسبب إعلان حالة الطوارئ، والحرب فى اليمن تزداد ضراوة، وخصوصًا فى منطقة تدعى «صعدة»، وطبيب النساء زوج أختها سميرة لا يأتى إلا ليأكل وينام، فوقته مملوء بالعمل بين المستشفى الحكومى وعيادته الخاصة، ليس لديه وقت لأن يفكر فى شىء آخر، الأوقات القصيرة التى يقضيها جالسًا إلى المائدة تراه يأكل بسرعة، والنوم يداعب أجفانه، الدنيا تجرى وتجرى، والناس يتسابقون كالمجانين،

فيتصادمون ويتصايحون، ولا يرحم أحد أحداً، لكن أخاها سعد هو الوحيد الذى ظل متماسكًا رائق المزاج، محبًا للنقاش، عالمًا ببواطن الأمور، إن فضيلة تحب «سعدًا» برغم ما بينهما من خلافات فى الرأى تصل لحد الشجار، إن جلوسها كل يوم إلى سعد أمر لا مفر منه، قد يستفزها أو يقلقلها، لكنها ترحب بكل ما يقول سواء أقبلته أو رفضته. . كان سعد يحادثها فى كل الأمور إلا عادل. . كان يتجنب الخوض فى شخصه بالخير أو بالشر، احترامًا لمشاعر أخته، لكنها تمنت فى أوقات كثيرة أن يفتح لها قلبه، هى فى حاجة إلى معرفة المزيد عن عادل من مصدر آخر، لكن الصحفيين- حسبما تعتقد فضيلة - لا يعرفون الحياد، إنهم متحيزون دائمًا لوجهة نظر ما، سواء أكان ذلك بالحق أو بالباطل، هذا مع أن الصحفيين يظهرون على الورق خلاف ما يبطنون، فمقالاتهم اليومية تسبح بمجد الرئيس والثورة، وأحاديثهم الخاصة تسب وتلعن، قالت له فضيلة :

- «الصحافة هى الإثم الأكبر فى عصرنا. . ».

- «لماذا الصحافة بالذات؟؟ إنها صدى لما يجرى على الساحة».

قالت فى تحد:

- «إنكم تعطون صورة جميلة مشرقة عن الحياة، مع أن الواقع فى منتهى السوء..».

رد سعد متفلسفًا:

- «إذا أردت الحكم على الصحافة، فليكن حكمك عليها من خلال أهدافها ووسائلها.. وعلى ضوء ذلك يمكننا القول إن صحافتنا من أنجح صحافة العالم..».

هتفت فضيلة:

- «يا إلهى!! إنكم تقلبون الباطل حقًا..».

- «هذا هو النجاح يا فضيلة..».

- «لقد فسد كل شىء إذن».

اعتدل سعد فى مكانه، وقال فى برود:

- «إن هدف الصحافة التعبير عن إرادة الحاكم وفلسفته،

هذا هو واقع الأمر، ووسيلتها التعبير عن صدق تلك الفلسفة ونجاحها وإتيانها بالمنجزات.. بل والمعجزات.. الصحافة مؤسسة حكومية.. ونحن نأخذ أجورنا فى هذا الإطار.. ولو خرجنا عن ذلك لاتهمنا بالغباء والخبل.. بل الخيانة.. نحن مجندون يا عزيزتى الدكتورة مثل خطيبك تمامًا..».

سقطت العبارة الأخيرة عليها، يصاحبها دوىٌّ هائل..

قالت وقد احتقن وجهها:

- «لا أفهم ما ترمى إليه».

- «إنه أصبح شخصية بارزة فى تنظيم الحزب.. وله كلمة مسموعة..».

تململت فى خرج وغمغمت:

- «هل التفوق الحزبى جريمة؟؟».

- «أستغفر الله يا شقيقتى.. لكنى أقصد الوصول.. والوصول أنواع.. الوصول فن..».

- «ما هذه الألغاز . . ؟؟» .

- «لا ألغاز . . الحقيقة عارية . . والناس اليوم يتباهون بالصفاقة . . » .

صرخت :

- «كفى يا سعد . . » .

ربت على كتفها فى حنان، وقال :

- «لماذا تأنفين يا صغيرتى الحبيبة من قول الحقيقة؟؟ لقد حرصت على جرح مشاعرك زمنًا، ولكن لا يمكننى السكوت، إن فضيحة نادية عبد الباقى يعرفها الجميع . . وخطيبك ضالع فيها . . لكن الأوامر العليا صدرت بتجاهل الموضوع، وعدم النشر . . إن تدخل المباحث العامة فى أمر كهذا يعتبر بالغ الخطورة . . لكن القانون قد فقد احترامه . . » .

قالت وقد شحب وجهها :

- «هل أفهم من ذلك أن . . » .

قاطعها قائلاً :

- «ليس بينى وبينه عداء شخصى . . لكنك أختى . . وليس من المفيد أن نخوض فى الموضوع أكثر من ذلك . . » .

أثارت كلمات سعد فى نفسها نوازع الرعب ، إنها لا تختلف كثيراً عن ما قاله زميلها رشدى القصاص الذى عهدته صادقًا أمينًا مخلصًا ، فصور الآمال الرائعة تنهار ، الحلم الجميل الذى نعمت فى جنته تعصف به رياح السموم ، والكوابيس المخيفة تتحول من النوم إلى اليقظة الحقيقة ليست عارية . . إنها غامضة غموض الليل البهيم الذى أقفر من القمر والنجوم ، وكيف تتجلى الحقيقة إذا كان إنسان يلبس ألف قناع وقناع فى اليوم الواحد؟؟ تعست الحياة وتعس كل ما فيها . . لماذا يتحول الناس فى زماننا إلى ذئاب وضرار؟؟

قدمت زوجة سعد من الطابق العلوى ، وقالت وهى تهبط الدرج :

- «أنسيت أننا ذاهبان لإجراء تحقيق صحفى فى مديرية التحرير؟؟ هيا. . لقد تأخرنا. . ».

قال سعد ساخراً:

- «نستطيع أن نكتب التحقيق ونحن فى القاهرة».

قالت زوجته:

- «والصور؟».

- «تستخرجها من الأرشيف».

- «وتصريحات الكبار هناك؟؟»

- «نفبركها».

سألته فضيلة عن «الفبركة»، فأخبرها أنه مصطلح صحفى يعنى تأليف. . أو اختراع الأخبار والأقوال. .

وعادت زوجة سعد تقول:

- «إنها رحلة ممتعة. . وفيها بدل سفر. . وولائم دسمة. . هيا يا رجل، ولا تكن كسولاً. . ».

فى المساء عادت سميرة الصيدلانية ممتقعة الوجه، زائغة النظرات، وما إن دخلت وأغلقت الباب حتى انفجرت باكية فى حرارة، مما أثار الدهشة والذهول، وجرت إليها الدكتورة فضيلة متسائلة، وقدم الأب الشيخ علام العيسوى وهو يتمتم «**اللهم لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه**»، وهرول أطفال المنزل والحيرة ترتسم على وجوههم البريئة:

- «ماذا جرى يا ابنتى؟؟».

- «أقسم يا أبى لا دخل لى فى الموضوع كله..».

وردت فضيلة فى تخويف:

- «ما هى الحكاية؟؟».

أخذت سميرة تجفف دموعها، وتقول:

- «لقد جاء المفتشون، وفحصوا الأدوية فحصًا دقيقًا.. قلت: لعلهم يبحثون عن بعض أنواع الأدوية المزورة الممنوعة.. أنا واثقة أن كل شىء على ما يرام.. لكنهم

اسنخرجوا بعض الأدوية الخاصة بالقلب، وقالوا: هذه أدوية مستوردة.. فكيف تستوردون الممنوع؟ لم أكن أعرف عنها شيئًا.. إنها أمور تخص صاحب الصيدلية ومديرها، ولا شأن لى بالتصرف فيها، ولكنه لم يكن موجودًا.. تصوروا لقد حققوا معى، وأخذوا الأدوية وحجزوها.. وسيأتون غدًا لاستكمال التحقيق.. ماذا أفعل؟؟.. إننى أخاف من أى تحقيق.. حتى ولو كان تحقيق الشخصية..».

قال الشيخ علام العيسوى:

- «أنا لا أفهم شيئًا..».

تطوعت الدكتورة فضيلة بالشرح قائلة:

- «إنهم يا أبى يمنعون استيراد بعض الأدوية الأجنبية لتشجيع المنتجات المحلية..».

قال بهدوء:

- «قد يكون منتجاتنا أقل فعالية ومستوى».

- «هو ذاك . . » .

- «ولا بد أن بعض المرضى يبحثون عن المستورد . . والاهتمام بالصحة يفوق أى اهتمام آخر لدى أى مريض . . » .

ثم هز رأسه قائلاً :

- «هذا موضوع تافه . . لو أنتجنا الجيد لما تلهف الناس على الدواء الأجنبى . . » .

واستدار وانصرف ، بينما هرولت الدكتورة فضيلة إلى التليفون ، واتصلت بالمقدم زوج رندة ، وبسعد أخيها ، ثم فكرت بضع لحظات وطلبت خطيبها عادل فتوح فى التليفون ، وجلسوا ينتظرون نتيجة المساعى المكثفة .

فى اليوم التالى كان الشيخ علام يضحك فى سعادة مباغتة ، وخاصة بعد أن تجلت الحقيقة ، إن أحد المسئولين الكبار كان يريد الحصول على ذلك الدواء لاستعماله الشخصى بصفة عاجلة وعجز عن العثور عليه ، ثم تفتق

ذهن البعض عن تلك الحيلة . . حيلة التفتيش . . والتحقيق الشكلى . . المهم أنهم حصلوا على الدواء . .

وهدرت سميرة فى غضب بعد أن تبين لها وجه الحقيقة :

- «يا كلاب ! ! لقد كاد قلبى يقف . . » .

واتضح أن عادلاً استطاع بوسائله الخاصة أن ينهى الموضوع على الصورة التى أعادت الاطمئنان والهدوء لأخت خطيبته وبيتها . .

عندما قابلها فى قسم الباثولوجيا ، قال لها :

- «الذين لا يستطيعون التكيف مع الحياة المتغيرة ينقرضون . . هل تعرفين شيئًا عن نظرية «النشوء والارتقاء» للعالم الكبير «داروين»؟؟» .

كانت فضيلة فاترة حزينة ، فردت دون اكتراث :

- «أعرف يا عادل . . إنه يزعم أن الإنسان أصله قرد . . وهذه خرافة . . ما أكثر الخرافات فى العلم الحديث . . » .

وفوجئت بعادل يقول فى صفاقة :

- «عندما أنظر إلى وجه رشدى القصاص.. أتذكر نظرية داروين».

ثم أخذ يقهقه كعربيد..

انتعض وجه فضيلة، وقالت:

- «عيب..».

- «أهو درس جديد فى الأخلاق؟؟».

ثم تلفت حواليه، وهمس:

- «أين هو؟؟».

- «لا أعلم.. إننى لم أره منذ يومين..».

قال وهو يتباله:

- «إذن فالإشاعة قد تكون صحيحة..».

- «أية إشاعة؟؟».

- «أفيك من يكتم السر؟؟».

- «لقد قبضوا عليه فى وكر سرى فى حلوان، كان

يشارك فى تدبير مؤامرة هو والإخوان لقلب نظام الحكم . . ويقال أيضًا : إنهم عثروا على كمية كبيرة من السلاح والمنشورات ، وخطة لنسف الكبارى ومحطات الكهرباء والمياه والسينما . . وأمور كثيرة أخرى . . » .

وهتفت دون وعى منها :

- «أنت تكذب . . » .

لم ينفعل أو يثُر . . بل أخذ يعبث بأحد طرفى شاربه ، ورمقها بطرف عينه فى شىء من السخرية ، ثم أدار وجهه بعيدًا عنها ، ودار بالكرسى نصف دورة ، وولى ذراعه خلف المسند ، وقال دون ينظر إلى وجهها :

- «يمكنك أن تسألى الأستاذ رئيس القسم . . » .

ثم قال متثاقلاً ، ونظر إليها فى هدوء واستطرد وهو يحذرها ملوحًا بسبابته اليمنى :

- «على فكرة . . لن تطلبى منى التوسط له . . هذه قضية مختلفة تمامًا عن قضية أختك . . لا يمكن التدخل - بأى

حال من الأحوال- فى القضايا السياسية ، أو التنظيمات السرية . . يمكن التوسط فى أى شىء إلا قضايا الإسلاميين . . مفهوم؟؟» .

بقيت وحيدة إلا من أساها العميق ، لشد ما تتألم من أجل رشدى القصاص الزميل الطيب الأمين ، وكادت تبكى من شدة الحزن عندما أكد لها الأستاذ خبر اعتقاله ، بل إن الأستاذ ألمح إلى رغبة المسئولين فى فصله من العمل بالكلية ، ونقله إلى وزراة الصحة . . هذا إن خرج من المعتقل دون محاكمة أو حكم . . كانت تشعر نحو رشدى بمشاعر إنسانية خالصة ، لم تفكر يومًا فى الزواج منه ، فهى لا تحب إلا هذا الإنسان العجيب الغريب عادل ، ولا حيلة لها فى الخلاص من هذا الحب . . إن عواطفها تستبد بها ، ولا فكاك على الرغم من كل ما يجرى أو يثار حوله . . «آه يا أيها القلب العنيد» .

إنها تتذكر أيام الدراسة فى المرحلة الثانوية ، كانت صغيرة مراهقة . . وكانت تخرج فى المظاهرات الصاخبة تهتف للثورة . . لمحمد نجيب فى البداية . . ثم الصدمة

المروعة بسقوطها . . واستعادت حماسها مرة أخرى، وأخذت تهتف لجمال . . الثورة هى مصر الجديدة . . هى الحرية والعدالة والتصنيع والصحارى التى تتحول إلى جنات . . والوحدة العربية . . والنصر على إسرائيل . . وتصفية الإقطاع والطبقات الأرستقراطية . . الثورة هى مصر الجديدة . . لكنها بعد سنوات أخذ بدنها يقشعر لما تسمع . . إن حكايات التعذيب والانتقام ترجف القلوب، وروائح الفضائح والاستغلال والاغتصاب تزكم الأنوف . . هل يعنى ذلك أن مصر الجديدة أكذوبة كبرى؟؟ لماذا يزداد الكبت، وتغلو الأسعار، وتشح السلع، وتأكل الدودة القطن، ويصرخ الفلاح فقراً . . لا . . إن كل شىء على ما يرام . . هذه مجرد فترة انتقال، وبعدها يرقص الناس فى مهرجان الحرية والرخاء . . السلع ستغرق الأسواق، والمصانع ستعمل بكامل طاقتها، والجيش سوف يسحق إسرائيل . . وأمريكا ستركع . . وساعة الزحف الثورى ستدق . . وتدق . . وستصبح مصر من جديد أم الدنيا . .

وقالت وهى تجفف دموعها:

- «رشدى القصاص لا يمكن أن يكون متآمراً . . إنه لا يملك إلا سلاح الكلمة . . » .

العالم يبدو أمام عينيها قبيحًا مخيفًا . . ما هو المخرج ، أتفرُّ بنفسها خارج البلاد ، بعد أن نالت دبلوم التخصص فى الباثولوجيا؟؟ أتذهب إلى إحدى الدول العربية أو الأوروبية أو أمريكا للعمل بها بعيداً عن هذا العذاب؟؟ أتغلق الباب على نفسها - سواء فى البيت أو معمل الكلية- وتعيش فى عزلة عن هذا العالم الردىء؟؟ أتنسى الطموح والمبادئ وتتزوج ، وتعيش لتفسها وزوجها وأولادها ، وتغمر فى شعور البلادة والبرود واللامبالاة؟؟ أم تراها تخرج إلى الشارع وتصرح برفضها وتمردها على أسلوب الحياة الجديدة البذيئة؟؟

عندما دلفت إلى مسكنها كان أبوها يقرأ فى سورة سبأ بصوت رقراق ندى :

- « . . ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم

بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ⑯ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٦، ١٧]. . ».

وأخذت تستمع إلى الآيات التى يتلوها أبوها بعمق إلى أن قرأ: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]. .

أغلق «الكتاب»، ونظر إليها فى حب وجاءه صوتها:

- «لقد أخذوا زميلنا رشدى القصاص».

هز رأسه قائلاً:

- «أعلم».

- «وكيف عرفت؟؟».

- «كان أمام عينى».

- «هل كنت فى حلوان؟».

- «بل فى مسجد مولانا الحسين. . ».

- «يا إلهى . . لقد زعموا أنه ضالع فى مؤامرة . . » .

ابتسم الأب فى حزن جليل، وقال :

- «إنه تلميذى ، وأنا أعرفه . . » .

ثم اتجه صوب غرفة المكتب وهو يتمتم :

- «لعله يجد هناك الجواب . . » .

●●●

[٩]

داخلته حيرة آخذة بتلابيبه، ولماذا لا يضطرب رشدى القصاص ويقع فى بلبلة غامرة؟؟ فليس لديه أدنى سبب مفهوم أو معقول لما يحدث له، ابتدأ الشك يساوره فى نفسه، هل أقدم على فعل خطأ ما دون أن يدرى؟؟ إن حياته بسيطة غاية البساطة، فوقته موزع بين الباثولوجى فى الكلية، والصلاة فى المسجد، والركون فى بيته إلى القراءة أو النوم أو الطعام، نجح فى الدبلوم التخصصى، وبدأ العمل فى الدكتوراة، حتى الطلبة الذين يدرس لهم بعض الدروس العملية البسيطة فى القسم - بتوجيه من أستاذه- لا تربطه بأى واحد منهم صلة خاصة، وجيران السكن لا يعرفون عنه شيئًا يذكر وهو - أيضًا - لا يزور ولا يزار، وزملاء الدفعة الذين تخرجوا معه ذهب كل واحد إلى حال

سبيله، تفرقوا . . حتى الذين يعملون فى الكلية قد يمر شهر أو شهران دون أن يلتقى مصادفة بواحد منهم، ورفاقه فى القسم علاقته بهم علاقة عمل لا أكثر ولا أقل . . إن رشدى القصاص يتصفح كتاب حياته سطراً سطراً، بل كلمة كلمة، وليس فيه ما يؤاخذ عليه، لا ينكر أنه يرفض الكثير مما يجرى على الساحة العامة سواء على الصعيد الأخلاقى، أو السياسى، أو الاقتصادى، لكنه يمشى فى طريقه على أساس القاعدة الذهبية «عليك نفسك»، مناقشاته الطارئة النادرة لا تخرج عن إطار الشرعية وتتسم بالتعقل والحرص، هو يعلم أنه يعيش فى أتون الجنون؟؟ ومع ذلك فإن نظرات الشك والتربص تحاصره من كل جانب، والوجوه الكالحة المتحفزة تقيم حوله سوراً صلداً من الوعيد .

قال له المحقق :

- «تكلم . . إننى أستمع إليك . . » .

- «ماذا أقول؟؟» .

- «قل أى شىء يخطر على بالك».

- «يخطر على بالى سؤال كبير !!».

- «ما هو يا رشدى؟؟».

- «لماذا أنا هنا؟؟

نظر إليه المحقق فى سخرية :

- «ألا تعرف؟؟».

- «والله لا أعرف . . ».

قال المحقق محذرًا :

- «لا مجال للقسم هنا ، فنحن لا نصدق أحدًا . . ».

- «وماذا أفعل لتصدقنى؟».

- «قل الحقيقة . . ».

- «قلت».

اعتدل المحقق فى مكانه ، وقال فى صبر نافذ :

- «أنت من الإخوان المسلمين . . ».

- «الإخوان حُلَّت منذ أكثر من عشر سنوات . . يومها كنت طالبًا فى الثانوية . . » .

- «لم تثبت أو تنف . . » .

- «أنا لا أنتمى لأى تنظيم» .

- «لكن التحريات تثبت غير ذلك» .

- «أتحدى أن تقيموا ضدى دليلاً واحدًا . . » .

- «الدليل عندك . . » .

لم يفهم رشدى ، تركه المحقق وخرج ، ودخل ثلاثة من ذوى البنيان المتين ، والوجوه المكفهرة ، والعيون التى تتقد شررًا ، هوت قبضة ثقيلة على رأسه من الخلف ، دارت به الأرض ، والتفت لكن لكمة أخرى نزلت على أنفه ، وسرعان ما تدفق الدم على قميصه الأبيض ، وجاءته ركلة محكمة على مؤخرته ، قذفت به صوب المكتب الأنيق المعتم ، وتكاثرت اللكمات والركلات ، حتى سقط عاجزًا ، وعيناه تدوران باحثة عن نجدة ، تمتم :

- «أيكون هذا هو الجواب يا شيخى الجليل؟؟» .

وعاد المحقق مرة أخرى . . قال فى دهشة مفتعلة :

- «ماذا تفعلون برشدى يا أوباش؟؟ إنه رجل محترم ومن هيئة تدريس الجامعة . . وهذا أسلوب لا يليق به . . اخرج يا حمار أنت وهو . . » .

قام رشدى متثاقلاً ، وهو يمسح الدم والدموع ، قال :

- «لعله مجرد سوء فهم . . » .

ابتسم المحقق ابتسامة غامضة ، وقال :

- «تعلم أن المباحث العامة لا يدخلها- فى العادة- إلا المشبوهون . . ولهذا فهم يهجمون كالوحش على كل داخل . . يكفى أن يروا وجهًا غريبًا . . » .

وعاد المحقق يقول بعد لحظة :

- «يبدو أنك لا تدرك يا دكتور طبيعة الموقف . . وأظن أن هذه أول مرة تشرفنا فيها . . على العموم خذها

نصيحة منى و تكلم بكل ما تعرف، وإلا فات الوقت، وضاعت الفرصة، وأتى الوقت الذى تفقد فيه القدرة على الكلام».

قال رشدى محتقن العينين:

- «هل أنا متهم يا سيدى؟».

- «ولماذا أتينا بك إلى هنا؟؟ ألا تعرف أين أنت؟؟».

تلفت رشدى حوله قائلاً:

- «فى الحقيقة لا أعرف.. لقد ربطوا عينى فى السيارة، ولم يزيلوا العصابة إلا فى تلك الغرفة الضيقة..».

تنهد المحقق، ثم قال:

- «أنت فى القلعة.. أعنى معتقل القلعة.. ألم تسمع عن القلعة وما يجرى فيها؟؟».

تذكر الهمسات التى كانت تتوارى فى الظلام عن قصص الموت والعذاب، وما يلاقيه المعارضون السياسيون،

وأصحاب التنظيمات السرية المحظورة، ورشدى يعلم أن مجرد الحديث عن هذه الأمور جريمة فى حد ذاته . .

- «أنا يا سيدى رجل مشغول بعلمى وعملى . . حتى الصحف لا أقرأ فيها إلا العناوين الكبيرة . . » .

- «لكنك تقرأ الكثير فى كتب الدراسات الإسلامية» .

أفاق رشدى، وجمدت نظراته على وجه المحقق، وقال فيما يشبه الحلم :

- «نعم أقرأ فى السيرة والفقه والتفسير» .

فاجأه المحقق مرة أخرى، بالسؤال التالى :

- «أتقرأ كتب سيد قطب؟؟» .

- «تروق لى كتب التراث القديمة» .

- «والكتاب الجديد «معالم فى الطريق»؟؟» .

- «لم أره . . » .

- «ألم تسمع عن مجتمع «الصفوة» الذى يدعو إليه؟؟» .

قال رشدى متسائلاً :

- «مجتمع الصفوة؟؟ ماذا تعنى؟؟» .

- «ألا تؤمن بأننا نعيش فى جاهلية كما يقول؟؟» .

- «أية جاهلية يا سيدى؟؟» .

- «جاهلية القرن العشرين . . » .

شرد رشدى بضع لحظات ، ماذا يجرى هنا فى القلعة وفى الخارج؟؟ إنهم ينهشون كرامة الإنسان واحترامه لذاته . أترى كانت الجاهلية القديمة على هذا النحو؟؟

- «فى الجاهلية يا سيدى المحقق لم ألتفت إلى أمر كهذا» .

- «إما أنك تتغابى أو أنك غبى بالفعل . . » .

- «سلنى يا سيدى عن أسرار الباثولوجيا أجبك بسرعة وثقة . . » .

- «وما هى الباثولوجيا؟؟» .

- «علم الأمراض . . هذا هو تخصصى!!» .

هز المحقق رأسه قائلاً :

- «وماذا وجدت فى كتب التراث يا دكتور؟؟» .

- «ما تجده أنت . . ويجده كل الناس . . » .

نهض المحقق، ودار حول مكتبه، ثم أمسك بكتف رشدى، وقال :

- «هل حكومتنا على باطل؟»،

- «أنا لم أقل ذلك . . » .

- «ماذا تقول إذن؟؟» .

ها هى الدائرة تضيق، والتحدى القاتل يأخذ بخناقه، كلمة واحدة يقولها قد تنزل به أسفل سافلين، أو تأخذ به إلى طريق النجاة، ولمن يقول الحقيقة؟ للرجال الذئاب؟؟

- «وما قيمة رأيى يا سيدى فى حكومة طردت المستعمر، وبنت السد العالى، وحطمت مظالم الإقطاع والرأسمالية، ورفعت من قدر العمال والفلاحين؟؟ وماذا أقول عن الحكومة التى يسرت لى سبيل التعليم بالمجان، وأعطتنى الإعانات من الأوقاف؟؟ أنا لست منكراً للجميل . . » .

قال المحقق :

- «ولماذا لم تنضم للاتحاد الاشتراكى . . ؟» .

هتف رشدى قائلاً :

- «بل أنا عضو عامل فى وحدة مصر القديمة» .

- «صحيح؟؟» .

- «اسألهم . . » .

- «ولماذا قلت فى البداية : إنك لم تنضم لأى تنظيم؟؟» .

- «قصدت التنظيمات القديمة . . ما قبل الثورة . . » .

كانت ليلة طويلة عانى فيها رشدى الأمرين ، لم يذق النوم لحظة ، لقد أخذوه ضمن مجموعة من عشرة أفراد لا يعرف منهم أحدًا ، بينهم طالب فلسطينى ، ونظّموهم فى طابور قصير ، وظلوا يجرون حتى تقطعت أنفاسهم ، وكان العسكرى الذى يحرك الطابور يحمل فى يده سوطًا ذا وقع أليم . كان فى قدرة رشدى أن يحتمل ، «العثور على

الجراب يا شيخى الجليل غالى الثمن جداً . . الحقيقة لا تكشف عن وجهها الساطع يا شيخى إلا عبر الأشواك والدماء والدموع . . لقد وجدت الجواب عن بعض التساؤلات ، لكن هناك سؤال جديد محير يا شيخى الجليل ، ألا وهو : لماذا يترك الله الظلم والظالمين على الأرض دون عقاب؟؟ قد تقول : إن العقاب فى الآخرة . . وهل يمكننى - كإنسان محروم معذب مقهور- أن أنتظر وأنتظر ؟؟ أشعر أننى فى عجلة من أمرى يا شيخى الطاهر ، وأريد أن أرى بعينى رأسى فوراً مصارع الظالمين . . إنهم يقتلون القيم النبيلة بلا رحمة ، ويتركون الإنسان مجرداً من مقومات الإنسانية ، يتركونه جسداً بلا روح ، بلا قلب ، بلا حب كبير . . أشعر يا شيخى أنه لم يبق فى إلا الماكينة التى تأكل وتشرب وتنام . . أترى رشدى القصاص قد مات؟ لقد رمونى باتهامات غريبة . . زعموا أننى أجتمع . . وأدفع التبرعات . . وأخطب ضد الحكومة ، وأدبج المنشورات ، وأنشر النكت السياسية ، وأسخر من الكوادر الحزبية الأصيلة عندهم . . ساقوا اتهامات كثيرة لا حصر لها . .

لكنهم لم يقدموا دليلاً واحداً على زعمهم . . وما زالوا يا شيخى يضربوننى ، ويحقروننى ، حتى كادت عزيمتى أن تخور تمامًا ، فصرخت فى احتجاج : هل خلقنى الله لهذا العذاب؟؟ ستقول لى يا شيخى - لو كنت معى - إنه امتحان أو ابتلاء . . نعم ، صدقت . . لكن متى ينتهى؟؟ أحيانًا أعتقد أن فى الموت راحة ، لكن أين هو الموت . . علمنا هباء ، وعملنا هباء ، تضحياتنا هباء . . استغفر الله يا شيخى . . . » .

- «أخذت رشدى سنة خفيفة من النوم ، رأى الشيخ يجلس إلى جواره فى مسجد الحسين ، ويمسح على رأسه ووجهه ويقول : «بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ

إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٧]. .

أفاق رشدى من غفوته، وتلفت حوالى، وانهمرت الدموع من عينيه، وأخذ يصيح:

- «صدقت. . صدقت. . أستغفرك ربى وأتوب إليك. .».

واستعاد رشدى إيمانه التقى بمرور الأيام، لم يعد يكترث كثيراً لما يجرى فى القلعة، أصبح همه الأكبر أن يذكر الله، ويصلى ويفكر، ويترك الغد لمشيئة الخالق، هل فى يده شىء يستطيع أن يفعله، وكان معه فى الزنزانة فتيان.

قال أحدهما:

- «لقد اشتد بنا البلاء».

أغمض رشدى عينيه، وتذكر شيخه الطيب، وقال:

- «البلاء قُرْبٌ».

- «ومن يستطيع أن يحتمل هذا كله يا رشدى؟؟».

- «المؤمن..».

- «ألا يكون القرب إلا بالعناء؟».

- «طريق الحب تكتنفه الأهوال.. إن كنت تحب حقًا فامض فى سيرك ولا تهن..».

- «أصبحت أكره..».

- «الحب لله.. والكره فى سبيل الله.. ذلك هو الإيمان، هل نسيت حديث الحبيب محمد ﷺ؟؟ كان يقول فى معرض حديثه عن المؤمن «أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وإن يكره المرء لا يكرهه إلا لله..».

- «هذا زمان الأصفياء».

- «الناس هم الناس».

- «بل نحن فى أسوأ عصر، وأبشع قهر».

- «سلاحك الصبر».

- «أفضل منه القبر..».

أخذ رشدى القصاص يتطوح يمنة ويسرة، ثم قال:

- «إنى أسمع أذان الفجر.. قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله».

●●●

أصبحت فضيلة غير قادرة على الهرب من التفكير فى شأن رشدى القصاص، كلما حاولت إبعاد صورته من ذهنها عادت إلى الإلحاح عليها من جديد، وما أكثر الذين يذهبون ويغيبون، ثم يعودون مرة أخرى، إنها - فى الواقع- لا تعرف المعلومات الكافية عن رشدى وقضيته، ومن يستطيع فى هذه الأيام أن يعرف الحقيقة؟؟ الصحف لا تكتب شيئًا، والمحاكمات السياسية تجرى فى الخفاء والأحكام تصدر سرًا، ومن يتدخل فى أمر كهذا يجلب على نفسه المتاعب، ويوقع سلوكياته فى شبهة لا فكاك منها.. ومع ذلك فقد فاتحت أباها فى الأمر فلم تجد لديه قدرة على فعل شىء إلا الدعاء بالنجاة، وتحدثت مع المقدم زوج أختها رندة، فأفهمها أنه لو توسط فى أمر كهذا

لأحالوه إلى الاستيدع إن لم يحاكموه، وأخيراً لجأت لسعد أخيها، كان سعد حزيناً من أجل رشدى، لكن الأمور- حسب ما يرى - تجرى فى غير صالحه، فالحكومة تعد ضربة قاسية ضد ما تسميه بالتيار الإسلامى المتنامى، وخاصة بعد صدور كتاب «معالم فى الطريق» وكتاب «جاهلية القرن العشرين»، وأنه من المحتمل جداً أن يعاد اعتقال كل من سبق اعتقاله منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن، بل هناك فكرة رهيبة تدعو إلى تصفية الإخوان المسلمين قتلاً وسحلاً دون محاكمات، وسيادة الرئيس فى اجتماعات الحزب يمهد لذلك، ويحذر من الرجعية والثورة المضادة، وخاصة بعد الفشل فى حرب اليمن، وانفصال سوريا قبل ذلك، والأزمة الاقتصادية الخانقة التى تكاد تكتم الأنفاس..

وكان لكلمات سعد وقع الصاعقة بالنسبة للدكتورة فضيلة لم تكن تتصور الأمر على هذا النحو من خطورة، إن معنى كلام سعد أن البلاد على وشك أن تغرق فى حمامات الدم، وأن هذه القسوة المفرطة قد تدمر البلاد ومستقبلها، ولا يمكن لوضع كهذا أن يستمر، وليس هذا هو الأسلوب

السليم للإعداد المواجهة إسرائيل وأمريكا . . وهل يستطيع شعب مجروح مقهور أن يحقق انتصاراً تاريخياً؟؟

قال سعد مجيباً على تساؤلها الأخيرة :

- «ولِمَ لا؟؟ إن ستالين قتل الملايين من أعداء الثورة الشيوعية، ثم انتصر على الألمان . . وها هى روسيا إحدى الدولتين العظميين . . » .

ضربت فضيلة كفًا بكف، وقالت :

- «أعترف أننى لا أستطيع فهم أى شىء فى السياسة . . » .

وسادت فترة صمت وتفكير، قالت فضيلة بعدها :

- «هل يكفى أن تصنع الأسلحة الرهيبة، ونجد الخبز، ونحقق التقدم التكنولوجي لنكون سعداء؟؟» .

- «وماذا يريد الإنسان غير ذلك فى هذا العصر يا دكتورة . . ؟» .

- «السعادة . . الكرامة . . الحرية . . » .

- «ألا يأكل ويشرب، وينام، وينجب أطفالاً؟».

قالت فضيلة في حنق:

- «تلك حياة العبيد..».

كان أبوها خارجًا من الحمام، وقطرات ماء الوضوء تتألق كالفضة من لحيته البيضاء ووجهه ويديه، وكان يتمتم:

- «يا لطيف.. الطفْ بنا فيما جرت به المقادير..».





قال الدكتور عادل فتوح لها :

- «لا أستطيع يا حبيبتى أن أفعل شيئًا بالنسبة لرشدى ، لقد سبق السيف العذل يا فضيلة ، ثم لماذا تفكرين فيه؟؟ فليذهب إلى جهنم . . إنه تافه لا قيمه له . . » .

لم تشعر بالارتياح لكلماته القاسية ، لكنها اعتصمت بالصبر والحكمة ، لعلها تستطيع أن تقنعه بالتدخل لتجدته ، همست فى رجاء :

- «لكنه مظلوم يا عادل ، وأنت تعلم . . » .

هدر فى غضبت :

- «هذا تصور عقيم ، إن لم يكن ساذجًا . . ماذا نعرف عن أسرار الآخرين؟؟ إن رشدى وأمثاله يريدون أن يشعلوا

نيران الفتنة فى الدولة، ويقضوا على منجزات الثورة. . وماذا تكون الخيانة العظمى إن لم تكن ذلك؟؟».

تململ عادل فى جلسته، ثم طلب منها أن تكف عن هذا الحديث، لقد جاء لدراسة الخطوات العملية للزواج وإتمامه فى أقرب فرصة ممكنة، وأفهمها أنه اشترى سيارة «فولفو» شبه جديدة إذ لم يمض عليها أكثر من عام، وأنه أخذها بثمن بخس من مزاد صورى، وأن لديه من المال قدرًا لا بأس به يكفى للزواج والجهاز وشهر العسل، ولديه الشقة الفخمة التى أخذها من الحراسة، فضلاً عن بعض المشاريع التجارية التى تدر عليه دخلاً كبيرًا، ولم تمانع الدكتورة فضيلة فى بدء الاستعدادات، وإن لم يبدُ عليها التحمس الذى كان يتوقعه فى مثل هذا الموقف، لكنه لم يُعِر الموضوع أدنى اهتمام.

لم يكن إعادة النظر فى إتمام الزواج أمرًا سهلاً، فالصورة تتغير من وقت لآخر، فى بعض الأحيان لا تستطيع فضيلة أن تتابع ما يجرى وتستوعبه، وعادل كالمادة الهلامية التى

تتـخـذ فى كل مـوقـع شكلاً جـديدًا، وهناك الكثـيـر من الأحداث التى يجب أن تتمعن فضيلة فيها، ما حقيقة العلاقة بين عادل وفضيحة الدكتور زكى فودة؟؟ إن قلبها يحدثها بأنه غارق حتى أذنيه فى الإثم، والشكوك التى تحيط بأسلوبه فى العمل السياسى أصبحت على كل لسان، ويكفى أن محيط العمل ومن يعملون فيه أصبحوا يتجنبونه، بل يخافونه، والطفرة الكبيرة التى تحققت له فى مجال المركز، والمال، والوضع الاجتماعى تثير الريبة، وقد أصبح جليًا أن معظم أفراد الأسرة لا يرتاحون لوجوده، ولا لمجرد ذكر اسمه، وإحدى الطبيبات الزميلات أفهمته بأن نادية عبد الباقى إذا ترك لها الحبل على الغارب فستكون سببًا فى تدمير سعادتها، لقد ذهب الرئيس القديم للقسم، وجاء رئيس جديد، ونادية ما زالت مسيطرة، ووضعها السابق لم يتغير، لم تزل مركز القوة.

كان على فضيلة أن تواجه نفسها بصراحة، وتحدد موقفها بكل وضوح، إنها تذكر أن أباها قال لها ذات يوم: إن انتماء الإنسان هو الذى يحدد وجهته فى الحياة، يا لها

من عبارة، إنها تلبس الزى الشرعى، وتؤدى الصلوات، وتحافظ على سلوكها، لم تسمح لأحد -فى يوم من الأيام- أن يستبيح حماها، ولو كان عادل فتوح نفسه، لكن هذه الصورة العامة، وذلك السلوك المتحفظ لا يحدد لها انتماءً أعلى.. ماذا تريد أن تكون؟ وما هو رأيها بالنسبة لمجتمعها ومستقبله؟ وما هو موقفها مما يجرى على ساحة الحياة فى هذا العصر الصاخب؟ ولماذا لا تشارك فى الأحداث قبولاً أو رفضًا؟ إن الاقتناع يتبعه العمل، والمشاركة، والاستعداد للتضحية إذا لزمت، وأسرتها غريبة، التجانس والهوية تكادان تكونان مفقودين.. أخوها سَعد صحفى مراقب.. على الحياد.. ويشارك فى اللعبة من خلال عمله الصحفى دون انفعال يذكر.. سيادة المقدم زوج أختها ملتزم التزامًا عسكريًا لا تردد فيه، شأن أى جندى، ولا يفكر فى فحص الأمور، وتبين الخطأ من الصواب.. إنه ينفذ الأوامر وكفى، وزوج سميرة طبيب النساء والولادة لا وقت لديه كى يفكر شىء آخر غير المستشفى صباحًا، والعيادة مساءً، والآخرون يسيرون على النهج نفسه، إنهم ينأون بأنفسهم

عن المشاكل، طلبًا للسلامة، هم أشبه بجمهور المشاهدين لملهاة أو تراجيديا، مجرد انفعالات وقتية أثناء التسلية، ثم يعودون إلى الموقف الحيادى. . أما أبوها فهو الوحيد الذى عاش فى الماضى لمبدأ، وثار ضد طغيان الإنجليز والقصر فى الماضى، وآمن بآراء سعد واحترم زعامته، وبعد أن خرج إلى التقاعد، وقامت الثورة لم يكن راضيًا عن الكثير مما يجرى، لكن رسالته فى سنوات عمره الأخيرة تحولت إلى رسالة تعليمية، إنه يعلم الأسس والمبادئ الأصلية، ويترك لتلامذته الاختيار، إن لهم حق التفكير والاستنتاج، لم تكن لديه القوة لكى يصارع ويخوض المعارك، لكنه كان مؤمنًا أن الانتماء حياة، وهو لا يقصد الانتماء إلى الأرض وحدها، إذ ليس الانتماء -فى نظره- عصبية جنس، أو أسلوبًا ظاهريًا فى الملبس والقول، إنه شيء عميق يرتبط بالقيم الإنسانية العليا، والتفانى فى سبيلها، وليس أعلى ولا أعظم من قيم الإسلام العريقة. . ومع ذلك فإن أباها لم يحاول أن يفرض عليها رأيًا، كان يضيء الطريق، ويترك لها الحرية كى تختار، ذلك كان موقفه حينما طرحت قضية

خطبتها لعادل فتوح . . ولهذا لا يمكن القول بأن الأسرة كلها ليست على انتماء تام . . إنه انتماء - أيًا كان الأمر - فى أضيق الحدود وأسلمها، لكن عادل ورشدى يختلفان . . عادل باع كل شىء، واعتنق الثورية، وخاصم الدنيا من أجل ذلك، هل هو صادق فى إيمانه؟؟ تلك قضية أخرى، أما رشدى القصاص، فهو -بحق- إسلامى الانتماء، لم يتزعزع أو يمالئ على الرغم من خطورة الاتجاه فى هذا العصر، كان حريصًا، لكنه لم يكن جبانًا، وكان يعمل من أجل مبادئه، لكن بلا طيش أو رعونة، وكان يرفض الكثير مما تعج به الحياة الآثمة الجائرة، لكن فى تعقل وصبر، لم ينافق، أو يمالئ، بل قال كلمته فى كل موقف يُملى عليه قول الحق بأرق وأحكم الكلمات . .

- «وأنا . . من أكون؟؟» .

سألت فضيلة نفسها، وكان السؤال حارقًا، بماذا تجيب؟ إن الزىّ الشرعى وحده ليس كل شىء، وإذا لم تكن لديها القدرة على تقديم التضحيات، ومواجهة

الزيف الصاخب بشجاعة، فإن عليها -على الأقل- أن لا تمد يدها لأبنائها فى المستقبل، كى يتنفسوا الهواء النقى، ويسلكوا الطريق المستقيم، ويحرصوا على نظافة القلب والعقل والروح. . إنها مسئولية ضخمة، والمسئولية فى عنقها. .

قالت لأبيها:

- «الحيرة تمزقنى. .».

- «تلك ضريبة المسئولية والحرية. .».

- «ماذا أفعل؟؟».

هز رأسه قائلاً:

- «إنها قضية. . وأنت القاضى. . فاحكمى بالعدل».

- «وكيف أنطق بالكلمة الحاسمة وأنا فى هذه الحيرة؟؟».

- «ولا تقولى إلا بعد أن تتأكدى».

وصمت برهة، ثم عاد يقول:

- «ولا تنسى أن القاضى يحتاج إلى قرائن وشهود أو اعترافات فى ظل إجراءات صحيحة . . » .

هزت رأسه قائلة :

- «فهمت . . » .

- «تلك بداية طيبة . . اسألى الله التوفيق» .

●●●

انتظرت الدكتورة ، فضيلة بعد الانتهاء من عملها عند موقف السيارات الخاصة ، كانت الشمس مشرقة ، ومن بعيد رأت نادية عبد الباقى قادمة بقدها المشوق ، وجمالها اللافت للنظر ، وفى يدها مفتاح سيارتها ، وفى يدها الأخرى حقيبة سمراء أنيقة . . كانت نادية تفتح باب السيارة عندما برزت لها فضيلة . . وحينما التقت نظراتهما ، ابتسمت نادية . .

- «أريد أن أتحدث معك بعض الوقت» .

قالتها فضيلة فى انفعال ، وردّت نادية :

- «ولم لا وإن كنت أعرف ما تفكرين فيه . . ألست خطيبة الدكتور عادل فتوح؟؟» .

لم ترد فضيلة ، وعندما فتحت نادية الباب ، دلفت فضيلة دون تردد ، وجلست إلى جوارها ، قالت نادية :

- ألا تخافين أن يراك أحد معى؟؟» .

ولكنها ظلت معتصمة بالصمت ، وأدارت نادية محرك السيارة قائلة :

- «ما هى وجهتنا . . بيتى . . أم كازينو؟؟» .

- «بل كازينو . . » .

- «أفضل أن نذهب إلى مسكنى الجديد ، إنه قريب من هنا . . أنا لم أتعود الجلوس فى مكان عام . . وأظنك كذلك . . » .

وسارت السيارة ، وظلت نادية تتحدث :

- «الناس يهربون من مرافقتى حتى لا تلاحقهم الشائعات ، وتحوم حولهم الشكوك . . أعرف ذلك ، لكنى

لا أهتم به، أنا أرفض أن يتـــدخل أحـــد فى حـــريتى الشخصية . . ».

لم تكترث فضيلة لشيء، كانت كل اهتماماتها مركزة حول معرفة الحقيقة، وذلك أمر يستحق الصبر والتضحية والمغامرة، عندما دلفت نادية إلى شقتها، قالت دون أن تلتفت إلى الدكتورة فضيلة:

- «الرجال يخطئون كثيرًا فى البداية، لكنهم بعد الزواج يصبحون شخصيات جديدة تمامًا . . ».

أعدت فنجانين من الشاى، وقدمت واحدًا لفضيلة:

- «وماذا يفيد النبش فى الماضى يا دكتورة؟؟».

- «يجب أن أعرف . . ».

- «هذا ليس ضروريًا».

- «كيف؟؟».

- «لو قلت لك أن عادلاً ملاك طاهر فلن تُصدقى . . ولو قلت عكس ذلك فستظنين أننى أهدم ما بينكما من علاقة كبيرة . . ».

قالت فضيلة وهى ترتجف :

-« والحل؟؟» .

- «تزوجيه . . ولا تفكرى فى شىء آخر» .

- «على أى أساس؟» .

- «على أساس أننا نولد كل يوم» .

هزت فضيلة رأسها قائلة فى أسى :

- «فهمت» .

تمتمت نادية :

- «إننى آسفة . . كثيراً ما تسير الأمور على نحو يصعب التصدى لها ، أو التغلب عليها . . لم أكن أعرف أنه خطيبك فى البداية ، ولماذا أخدعك؟؟» .

صرخت فضيلة ، والدموع فى عينيها :

- «ليس أنت . . إنه هو . . لماذا لماذا؟؟» .

- «أعرف أن أمرى لا يهمك . . بل لا يهم أحداً . . كل إنسان جزيرة . . جزيرة معزولة . . » .

أمسكت فضيلة بمعصم نادية فى غضب، وقالت فى غيظ:

- «لقد استطعت أن تفسدى كل شىء..».

قالت نادية فى سخرية:

- «بل هم الذين أفسدونى..».

- «والشرف؟؟».

ضحكت فى مرارة:

- «سفكوا دمه.. وهل يفعل الذئاب غير ذلك؟؟».

- «تلقين باللوم على الآخرين».

- «لو كنت كاذبة لكذبت عليك».

- «كنت أعرف..».

- «ولماذا أتيت إذن».

- «لأتأكد..».

- «هل تأكدت الآن؟؟».

سددت إليها فضيلة نظرات مرهقة محمرة:

- «هل يحبك؟؟».

- «لا أعرف.. الكثيرون يحبوننى.. أساتذة.. ضباط.. رجال أعمال، لم أجد من يرغب فى الزواج منى..».

دق جرس الباب..

لم تصدق فضيلة عينيها.. إنه هو عادل.. «يا إلهى هل أنا فى حلم؟؟ كان يحمل زجاجة من الويسكى، وكيسًا ورقيًا تفوح منه رائحة الشواء، سقطت الأشياء من يده.. قال متعلثمًا:

- «فضيلة.. لا تظنى بى الظنون».

أشارت فضيلة إلى نادية قائلة:

- «إنها أشرف منك ألف مرة..».

تناولت فضيلة حقيبة يدها فى عصبية، وهى تقول:

- «لم يعد هناك شىء يقال».

جرى عادل خلفها وهى تهرول خارجة..

- «اسمعيني أولاً . . » .

وتابعها لدى الدرج ، قال لها :

- «رئيس القسم الجديد هو . . » .

قالت فضيلة :

- «هو الذى سيأتى . . وأنت تعد للقاء . . يا لها من مهمة . . » .

- «لا تضيعى كل شىء . . » .

دفعته فى صدره بعنف :

- «لا ترنى وجهك مرة أخرى . . » .

توقف على الدرج ، وماج برأسه الغضب ، وهتف فى تحدٍ :

- «لن تفعليها . . ولن تستطيعى . . ستدفعين الثمن غاليًا . . » .

قالت ساخرة والدموع تبلل أهدابها :

- «هل ستكتب عنى تقريرًا للمباحث أنا الأخرى؟؟» .

نزلت كلماتها كالصفعة على وجهه . .

وعاد متثاقلاً متهالكًا إلى نادية .

قالت :

- «لشد ما أتألم من أجلك» .

- «دعى هذا الموضوع . . وصبى كأسًا من الويسكى . . » .

وكم كانت دهشته حينما سمعها تقول :

- «خذ أشياءك واذهب . . » .

قال محاولاً إبداء عدم الاكتراث :

- «أتمزحين؟؟» .

أمسكت بذراعه ، ووأخذت تجره صوب باب الشقة :

- «اذهب وإلا صرخت وجمعت عليك الشامى والمغربى . . » .

تمتم فى أسى :

- «هل أفهم أنى فقدت كل شىء؟؟» .

- «أفهم ما شئت . . » .

حينما أصبح خارج الشقة ، وقفت نادية واضعة يدها فى وسطها ، وقالت :

- «أتظننى غبية؟؟ أنت الذى وشيت بى عند زوجة الدكتور فودة . . أنت أنذل مَنْ رأيت . . لقد أخذت بيدك يومًا ما . . لكن عقرت يدى . . وتظاهرت بالبغاء حتى تمر العاصفة ، وآخذ بثأرى منك . . إن الذى يبنى يستطيع بسهولة أن يهدم . . والرئيس الجديد للقسم مثل الرئيس القديم تمامًا . . خاتم فى أصبعى . . » وصفقت الباب . .

رأى نفسه وحيدًا ذليلاً . . اتجه صوب الدرج مرة أخرى ، واستند إلى سياجه . . وأخذ يهبط . . ويهبط فى حزن ووهن .

●●●



في الزمن الخالى -فترات الفقر والذل- كان بإمكانه أن يحنى رأسه ويستسلم للهزيمة، فهو أعزل من كل سلاح إلا الصبر.. نعم صبر العاجز المقهور، أما اليوم فإن عادلاً لا يمكنه أن يقبل الهزيمة بسهولة، وما قيمة الحزب والمعتقد السياسى والمال إذا لم تهيئ له سبيل الفوز بما يريد؟؟ إن لديه القدرة على أن يبطش بأعدائه ويسحقهم.. لكن ليس كل الأعداء إن فيهم من يمتلك قدرات تؤهله للصمود، وإفساد ما يحاك ضده، نادية عبد الباقى شيطان مريد، هى أستاذته فى فن الكسب غير المشروع، وتحقيق الآمال بأى طريق، ليس المهم نظافة الوسيلة، إنهما يلتقيان عند هذه النقطة، ما زال أمامه امتحان الدكتوراة بعد الماجستير التى نالها، هو فى حاجة إليها، وإلى رئيس القسم، ولهذا لا بد

أن يفعل المستحيل من أجل إرضائها، ولا بد أن يضع الخطة الناجحة التى توصله إلى ما يريد، كيف عرفت الملعونة أنه كان وراء الوشاية بأستاذه؟؟ نعم، فعلها حتى يتخلص منه إلى الأبد، وتصبح نادية له وحده، لم يكن يعرف أن نادية لديها سجلات، ولم يكن يتصور أن زوجة الدكتور زكى فودة سوف تندفع للقبض على زوجها متلبسًا بجريمته.. ولم يكن الاستحواذ على نادية هو السبب الرئيسى لوشايته، لقد داخله شك بأن الأستاذ السابق قد يضمر له الشر، ويوقع به فى الامتحان فجأة.. مجرد ظنون، لكنها سيطرت على ذهنه بصورة ملحة، وما أن نجحت وشايته وأثمرت، حتى عاد الخوف يسيطر عليه، إن سقوط الدكتور زكى قد يقضى على آماله فى النجاح.. وهكذا غرق عادل فتوح فى هُوّة سحيقة من الخوف والحيرة، ولم يعد يدرى ماذا يفعل..

أما الدكتورة فضيلة فهى الجانب الآخر من المأساة، لم يكن يتصور أن يفقدها على هذا النحو المفاجئ السريع، هل المصادفة وحدها وراء ذلك الدمار الذى لحق بخطته؟؟ من

الصعب أن يؤمن بالمصادفة، على الرغم من تواجدها مع نادية فى الوقت الذى يطرق فيه بابها، كانت نادية تعلم أنه قادم، فلماذا لم تتخلص من فضيلة؟ لماذا لم تتصل به هاتفيًا لتطلب منه تأجيل الموعد؟؟ أهو انتقام خبيث دبرته نادية للأخذ بثأرها ممن وشى بها إلى زوجة زكى فودة؟؟.

إن كل ما جرى يعتبر هزيمة شديدة له بأى مقياس، ومع ذلك فلن يستسلم، سيحاول من جديد النهوض والوثوب، ليس فى السياسة يأس -وهو رجل سياسى محنك- كما ليس فيها مبادئ، بل مصالح متبادلة، والجالسون على القمة يسفكون الدماء ليضمنوا البقاء على عرش السلطة، مع أن القتل أبغض الجرائم إلى الله.

لِمَ يضيع الوقت فى البكاء والنحيب والندم، بل أخذ يضمد جراحه، ويعيد تنظيم قواته، ويجهز أسلحته لاسترداد ما فقده من هيبة وثقة وحب. . كتب رسالة إلى الدكتورة فضيلة يشرح لها فيها الأمر من وجهة نظره. . كانت هذه الرسالة تشكل أهمية كبرى بالنسبة له:

- « . . . تعرفين حبيبتى أننى متمسك بحبك حتى النهاية، ولو افترضنا جدلاً أن القدر سيحول -لا قدر الله- بين آمالنا الكبرى فى الزواج، فسأظل وفيًا منتظرًا عودتك لى . . وإن تعذر ذلك فى الدنيا، فلن أفقد الأمل فى الآخرة . . .

إن ما حدث كان مجرد مؤامرة خبيثة دبرتها نادية عبد الباقى، وجميع من فى القصر العينى يعرفون حقيقة نادية عبد الباقى . . إنها شيطان فى صورة امرأة . . تصورى أنها عرضت علىّ الزواج فى يوم من الأيام مستغلة صلتها بالأستاذ السابق!! اعتبرت ذلك جنونًا، فهى قبل غيرها تعرف وضعها وسمعتها الملوثة، ولم يكن ذلك الطلب العجيب إلا سخافة مضحكة . . قلت لها: إننى خطبت الدكتور فضيلة من زمن، وإن الزواج قسمة ونصيب، ولم أشأ أن أجرح كبرياءها كامرأة . . لكنها ألحّت فى الطلب . . ولم يتغير موقفى يا حبيبتى . . إننى مستعد أن أضحى بكل شىء، إلا أنت . . هذه قضية حُسمت منذ زمن قديم . . ولعلك تتساءلين ما الذى أتى بى إلىَ بيتها؟؟

لقد اتصلت لى فور وصولها إلى مسكنها، وأفهمتنى أن رئيس القسم الجديد سوف يتناول طعام الغداء عندها، وطلبت منى -نيابة عن الأستاذ- أن أمرّ على مطعم بعينه لإحضار الطعام الجاهز، وأنت تعلمين يا حبيبتى مدى سطوة الأساتذة، وعدم اللياقة فى الإفلات من مطالبهم.. لم يدر فى ذهنى أن أحقق رغبة بسيطة كهذه لأستاذى.. مهمة محددة ليس فيها ما يدعو إلى التردد أو التخوف.

عندما أتيت فوجئت بوجودك، لم أتصور قط أن أجدك فى مثل هذا المكان الموبوء.. إن فضيلة لا يصح أن تتنفس هواء مكان آسن كهذا، لكن كيف استطاعت أن تخدعك وتأخذك إلى هذا المكان، ذلك ما لم أستطع فهمه حتى الآن، إنك شديدة الحرص، وتعرفين ما يدور حول هذه المرأة من لغط، فأية ظروف أو ملابسات جعلتك تذهبين إليها؟ إن رأسى يكاد ينفجر.. ومع ذلك، فإن القضية واضحة غاية الوضوح.. لقد أرادت الشيطانة أن تفسد ما بينى وبينك حتى تحقق بغيتها، وأصبح لها وحدها، فأتزوجها، لم يتبادر إلى ذهنها أن ذلك من رابع

المستحيلات . . فالإنسان العاقل يريد لأبنائه أماً فاضلة قادرة على أداء رسالتها الأسرية وفق الآداب الإسلامية السمحة ، وأنت يا حبيبتي مثل يُحتذى في الطهارة والصدق والوفاء . .

أجيبيني بصدق يا حبيبتي . . هل من العدل أن تصدري ضدي حكمًا بالإدانة لمجرد الشبهة؟؟ هل ثقافتك الدينية تؤهلك لمثل هذا التصرف؟ وماذا ستقولين أمام الله عند الحساب؟؟ هل امرأة كنادية عبد الباقي تقبل شهادتها شرعًا؟؟ إنني أرضى بمحاكمتك لي ، فالعدل يقتضي المحاكمة قبل إصدار الحكم . . واسألي أباك الفقيه الصادق عن هذا الأمر ، إنني متأكد أنه سيدلك على طريق الحق . .

حبيبتي . . أستحلفك بالله أن لا تدمري حلمنا الجميل ، وحبنا الخالد ، فقد عشت طول حياتي أحلم بذلك اليوم الذي يجمع الله فيه شملنا في بيت واحد ، تحت سقف الزوجية المطمئنة . .

وعلى أي حال ، فقد اتخذت قراري ، ألا وهو الاعتصام

فى بيتى حتى يأتينى منك ما يعيد إلى نفسى سعادتها واستقرارها. . لن أذهب إلى العمل. . وسأجلس أقرأ القرآن، وأدعو الله حتى تستجيبى لرجائى وندائى. .».

خادمك المطيع
المخلص للأبد
عادل فتوح

كانت تقرأ الرسالة وهى جالسة فى مكتبها بقسم الباثولوجيا، وضعت الرسالة فى حقيبتها، وأغمضت عينيها. . إنها تائهة لا تدرى ماذا تفعل. . كانت قد حزمت أمرها على نسيانه وتجاهله إلى الأبد. . لكن كلماته زلزلت حزمها وإصرارها، إن فى منطقه بعض الصدق، ليس من المستبعد أن تلعب امرأة مثل نادية هذه اللعب القذرة، أليست هى التى استدرجتها إلى بيتها بأسلوبها الماكر؟؟ ألم تعترف نادية بأنها مطية لكل عابث يدفع الثمن؟؟ إنها امرأة بلا قيم، باعت نفسها للشيطان، وداست مبادئ الأرض والسماء، فهل يكون غريبًا منها أن تلفق الأحداث، وتكيل التهم، وتدبر المؤامرات، لتلهو بأقدار الآخرين

وسعادتهم؟؟ ثم إن عادلاً له الحق -كل الحق- فى أن يدافع عن نفسه.

الواقع أن فضيلة شعرت بقدر غير قليل من الارتياح النفسى إن كلمات عادل ردت إليها اعتبارها كأنثى، وقضت على الكثير من الهواجس المحزنة، وهى تجد نفسها ميالة إلى تصديقه.. بل يحب أن تصدقه.. إن الشك لم ينتف تمامًا من قلبها، لكنها لا يصح أن تخضع لتلك العواصف الداخلية التى تؤرقها.. إن مناقشة المسألة بالمنطق المجرد تجعل لعادل الحق فى أن يصور على مطالبه.. وعلى براءته أيضًا مما نسب إليه.

قالت فضيلة لأبيها وهى جالسة معه فى شرفة الدور العلوى تحت ضوء القمر الساطع:

- «حائرة يا أبى بين عقلى وعواطفى».

رد أبوها فى هدوء:

- «من قال إنهما منفصلان؟».

- «كيف؟؟».

- «الهيكل واحد، والغذاء واحد، ونحن الذين نضع المسميات والتقسيمات. . الإنسان كيان معقد، لكنه واحد. . والله واحد. . والكون بأشجاره وأرضه وسمائه كائن واحد. . الوحدة سمة الوجود والحياة. . ».

تململت فى مكانها، لم تعد تطيق التعمق فى الفلسفات والأفكار، إنها تخضع لردود الأفعال السريعة، لعلها تعرف تفسير ذلك كله من خلال دراساتها العلمية عن الجهاز العصبى. . فلتنس كل شىء عن طبيعة الحواس وانعكاساتها، والأحداث أو الأفعال وردودها.

قالت:

- «إن أمره يحيرنى».

- «الدنيا لغز كبير».

- «عادل هذا. . ماذا أقول؟؟».

- «قولى إنك تريدين الزواج منه برغم نقائصه. . ».

- «وكيف عرفت يا أبى؟؟».

- «هذا بديهى؟ لأن الكمـال لله وحـده، والعـصـمـة لأنبيائه . . » .

وقالت وعيناها مغرورقتان :

- «ليت لى قدرة الكشف» .

- «هذا بعيد المنال . . عرفتم المادة . . لكن ماذا تعرفون عما وراءها» .

- «وتلك هى المشكلة . . » .

- «وستظل مشكلة يا ابنتى» .

- «والحل يا أبى» .

- «اللجوء إلى الله . . » .

- «آمنت بالله . . » .

- «عندئذ ينبثق نور الحقيقة فى داخلك، فتبدو الأشياء بصورتها الصحيحة . » .

- «متى؟؟» .

- «آه . . متى؟؟ العلم عنده» .

- «لكنى أتعذب».

- «لكنه رحمن رحيم يا ابنتى. . ».

دخل عليهما سعد أخوها فجأة قائلاً:

- «تتحدثون عن قضية الشرق الأوسط المتستعصية. . أراهن».

ابتسمت قائلة:

- «ليس فى رأسك غير السياسة. . ».

- «إنها وظيفتى يا فضيلة. . ثم إننى لا أقصد الشرق الأوسط بالذات. . أعنى الزواج. . ».

قالت وهى تقرصه فى حب أخوى:

- «وكيف عرفت يا عفريت؟؟».

جَرَّ أحد المقاعد الخيزرانية، وألقى بجسده عليه قائلاً:

- «فى الواقع الرجل يصعد. . وسيصبح نجمًا فى سماء الحزب والجامعة. . وهو محل للثقة. . وهذا يكفى. . ».

شعرت بارتياح، وقالت:

- «هل غيرت رأيك؟؟».

- «بل هو الذى تغير . . عادل هذا شاطر . . يعرف من أين تؤكل الكتف . . لقد تكيّف بسرعة . . ».

قالت فضيلة :

- «التألق السياسي خطر ، وأى تغيير يحدث يهوى به من القمة إلى الحضيض . . ».

ربت على ظهرها فى ود قائلاً :

- «لا تخافى . . الزعيم قوى وثابت فى موقفه . . وهم مرتبطون برباط وثيق . . ».

قالت فى حيرة :

- «أردت أن أقول إن هذه الأوضاع ليست هى المقاييس الصحيحة للحكم على الزوج . . ».

- «إنها مقاييس العصر ، بعد أن صفّوا الإقطاع ، وقضوا على رأس المال الجشع ، وأمّموا كل شىء . . ».

قالت : «ماذا تقصد؟».

قال: «في العهد الاشتراكي يكون الإيمان بالاشتراكية هو المقياس الذي يقاس به الرجال..».

تمتمت وهي ترمقه بنظرات حادة:

- «والمبادئ؟؟».

- «كل مبدأ آخر معناه السجن.. وأنت تريدين زوجًا وأطفالاً وحياة حية..».

التفتت إلى أبيها قائلة:

- «ألا ترى يا أبي أن كل شيء قد فسد».

قال ضاحكًا:

- «الصحافة أصل الفساد..».

رد سعد:

- «الصحافة عبد المأمور.. نحن نرقص في الزفة.. ونعلم ذلك جيدًا يا أبي..».

عاد أبوه إلى الضحك قائلاً:

- «كان أفضل لك أن تكون تاجرًا للبهائم..».

- «الجزارة أفضل . . كل الناس يشتهون اللحم . . » .

تثاءب الشيخ ، وقال :

- «البهائم . . الحلم . . الصحف . . كلها تجارة . . » .

كان أبوها مصراً على ترك الحرية الكاملة لابنته كى تختار ، ربما تعرف أكثر منه فى هذا المجال ، وإمكاناتها أوسع ، وخبرتها أحدث ، لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، وعقل يفكر ويحلل ، وقلب يخفق ، ثم إنها لا ينقصها الحذر والتريث وإرادة الله العليا فوق كل شيء ، لشد ما يتألم لحيرتها ! ! لكنه لن يسلك غير ذلك الأسلوب الذى حدده بالنسبة لمستقبل أولاده الأسرى ، والشيخ علام العيسوى لديه الكثير من الثوابت ، لكنه لا يضاد التطور فى أشياء كثيرة ، كل ما يعرفه أن البشر ليسوا ملائكة ، كما أنهم ليسوا جميعًا شياطين . .

●●●

لم تتردد فضيلة ، أدارت قرص الهاتف ، وقالت لعادل :

- «فهمت رسالتك . . متى نلتقى؟؟» .

- «يا لسعادتى !! فى الوقت الذى تحددينه . . » .

حينما خرجت إلى الشارع، كانت تدق الأرض بخطواتها القوية الواثقة، لم تعد تخاف شيئًا، لقد أنضجتها التجربة، وهى تشعر أنها قوية، ويمكنها أن تتخذ القرار الذى تؤمن به دون مواربة أو تردد .

قال لها زوج أختها طبيب النساء والولادة الناجح . :

- «علمتنى التجربة فى مجال الولادة المتعسرة أن أتخذ قرارى بسرعة وحسم : إن التلكؤ عندئذ قد يوقع الضرر بالأم أو الجنين وليس أمامى سوى احتمالات ثلاثة : إما المحافظ على كليهما معًا، أو بإنقاذ الأم، أو إنقاذ الجنين . . الأمر يبدو صعبًا، إنه قرار خطير . . لكن لا بد من إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . ومسألة زواجك يا دكتورة فضيلة أشبه ما تكون بالولادة المتعسرة . . هل لديك التصور الكامل لما أقول؟؟» .

وابتسمت أختها سميرة الصيدلانية هى الأخرى، وقالت :

- «أحيانًا يكون الزواج كالدواء المر، لكن على المريض أن يتجرعه حتى يشفى..».

همست فضيلة في شرود:

- «أخاف أن تكون الجرعة قاتلة..».





استطاع عادل- كما بدا له- أن يستعيد غزاله الشارد بسرعة مذهلة، لم يكن يتصور أنه قادر على ذلك الإنجاز الكبير بعدما جرى فى بيت نادية عبد الباقى، وقرر هذه المرة أن يعجل بالزواج؛ لأن فضيلة هى الرصيد الحقيقى لحياته المقبلة، إن لديه المال والمركز والمستقبل، لكنها كلها- ويجب أن يعترف - كالرمال المتحركة، لكن فضيلة ثابتة ثبات الطود الشامخ بكل ميزاتها المادية والمعنوية، هذه أمور مستقرة فى ذهنه لا تقبل الجدل، وهى كذلك منذ زمن بعيد. . وتبقى مشكلة نادية عبد الباقى، هذه الشيطانة الملعونة التى يمكنها أن تربكه بمؤامرتها ومكائدها، لو كانت صادقة فعلاً فى علاقتها برئيس القسم الجديد، فستتمكن من وضع العراقيل فى طريقه، وخاصة بالنسبة للدورة العلمية الأخيرة التى

يتشوق إلى الحصول عليها، هل كُتب على عادل أن يلعب على الحبلين، ويحاول الاحتفاظ بفضيلة رفيقة المستقبل، وبنادية عبد الباقى ذات النفع المرحلى؟؟ إنها معادلة صعبة، ولا يعرف عادل كيف يمسك بأطرافها، ويتحكم فيها دون مخاطر. . وحاول عادل أن يتقرب أكثر من أستاذه، لعله يستحوذ على ثقته ورضائه عنه، لكن الأستاذ حريص صامت، لا يستطيع أن يستشف من وراء كلماته وتصرفاته أى نوايا معينة، إنه كالسر الغامض المغلق، حتى معاملات الأستاذ مع نادية هى الأخرى تتسم بالجفاف والرسميات المتعارف عليها ، إنه لا يمزح معها أو يعاملها بشيء من الرقة والميل، ونظراته جامدة، لا عذوبة فيها ولا ميل، بل قلما ينظر إلى وجهها الجميل، ترى هل هذه الحقيقة أم أن وراء الملامح الجامدة قلبًا يعشق، ومشاعر تعبث؟؟ لقد زعمت نادية أن الرجل الجديد خاتم فى أصبعها، لكن أين القرائن والأدلة المقنعة؟؟ أيترك الأمر للظروف، وينغمس فى عمله، ويعتمد على كفاءته وجهده؟؟ لقد علمته الأحداث أن هذه لا يكفى فى عالم تسوده النفعية والرشوة والأغراض

الدنيئة والوساطة، لماذا لا يتابع حركات الأستاذ، ويتابع نادية عن قرب كى يصل إلى الحقيقة، إنه لا يطيق أن يظل هكذا غارقًا فى حيرته، ولم يقصر عادل فى تقصى الأخبار، وتشمم الشائعات من الزملاء والعاملين فى القسم، وكثيراً ما كان يذهب بنفسه ليراقب مسكن نادية، بل ويراقب الأستاذ نفسه فى عيادته، وتتبع حركاته فى كثير من الأوقات، واكتشف عادل أمرًا فى غاية الغرابة، أن الأستاذ غير متزوج هذه قرينة مهمة لا يمكن تجاهلها، إنه لا يعيش مترهبًا . لقد تزوج امرأة إنجليزية فى لندن أثناء الدراسة، لكن الزواج لم يستمر سوى عامين، وتم الطلاق، دون أن ينجبا أولادًا، ومنذ ذلك الوقت لم يتزوج ثانية، ولم يعجز عادل عن استقضاء أخبار الأستاذ فى الماضى والحاضر، ووصل إلى بعض الأخبار التى لا يعلم إلا الله مدى صحتها، منها أن زواجه من الإنجليزية انتهى بفضيحة لعلاقتها بواحدة من بنات جنسها، ومنها أنه شديد الحرص على ألا يقيم إية علاقات نسائية فى دائرة عمله، وأن حياته الشخصية مجهولة تمامًا، ولا يقيم معه فى المنزل سوى طباخ عجوز، يقوم إلى جوار

الطهو - بأعمال المنزل الأخرى من تنظيف وتنسيق. . وأنه لا يأبه للسياسة ولا يكترث لها، ولا يشارك فى المناقشات التى قد تجرى فى محضره. . كانت هذه المعلومات شبه كافية لعادل كى يصرف النظر عن نادية عبد الباقى، ولا يقيم وزنًا لتأثيرها فى مجريات حياته، ولكنه لم يقتنع بهذا التصور. . من يدرى ؟؟ قد تكشف الأيام عن قيام نادية بدور فعال فى القسم من وراء الستار، وليس عادل بالشخص الذى يترك مصيره للظروف، فلا بد أن يعمل حساب كل شىء، وأن يتحوط لكل طارئ. . وقرر لا بد من العودة إلى نادية عبد الباقى. .

«أيها الأبلة كيف تعود إلى الجحيم برجليك؟؟ وكيف تندفع إلى مغامرة جديدة تخسر فيها كل شىء؟؟ وماذا يحدث لو علمت فضيلة؟؟ إن نادية شريرة ولا يؤمن جانبها، فكيف تسلم لها نفسك مرة أخرى؟؟».

هذا ما قاله لنفسه، لكن رغبته فى العودة إليها جارفة كاسحة، هل كان الدافع إلى ذلك مجرد تجنب شرها، أو

الاستفادة من قدرتها على التأثير أم أن هناك دوافع أخرى لا تظهر على السطح، ولا يدرى عادل كنهها؟؟

كان يراها فى القسم كل يوم، وكانت الجفوة بينهما تجعلهما فى شبه خصام دائم، وليس هناك ما يدعو إلى مخاطبتها إلا فى أمور تتعلق بالمرضى والعمل والتعليمات..

انتهز فرصة وجودها وحيدة فى غرفتها ترتب بعض الملفات، ودخل عليها فجأة، كانت ابتسامته واسعة:

- «صباح الفل».

نظرت إليه فى دهشة، ثم ركزت بصرها مرة أخرى فيما أمامها من أوراق، وقالت باقتضاب:

- «صباح الخير».

اقترب منها أكثر، ثم وضع يده على الملفات قائلاً:

- «أكلنا معًا عيشًا وملحًا».

- «وما جزاء من يخون العيش والملح؟؟».

- «جزاؤه القتل . . » .

- «أتؤمن بذلك يا دكتور؟؟» .

أشار إلى عنقه قائلاً :

- «وهذا رقبتى . . فداؤك» .

- «ألم أقل لك : إن ما بيننا قد انتهى؟؟» .

- «إنى لا أصدق . . ثم إنى لا أستطيع . . » .

ابتسمت فى استهتار قائلة :

- «أهو انتقام من فضيلة؟؟» .

إدرك على التو أنها لا تعرف الصلح الذى تم بينه وبين فضيلة ، وسُرَّ لذلك ، إنه يسهل مهمته . . وتمتم :

- «إنها تثير المشاكل . . » .

وقالت وهى تلقى بجسدها على المقعد خلف المكتب :

- «ماذا تريد منى بالضبط؟؟» .

قال فى خبث :

- «أريد أن تفتحى لى باب الجنة».

- «يا لك من داهية!!».

- «أنت لا تعرفين مدى السعادة التى أضفتيها علىّ».

ضحكت، وقالت:

- «لكنك كنت ترتجف كالكتكوت أثناء التحقيق..».

- «كنت متوتراً.. لكنى تكلمت بثقة وقوة..».

همست وهى تعض على شفتيها السفلى:

- «ما زال الأمتحان بعيداً..».

قال متصنعًا الصدق والإخلاص:

- «لا يهمنى الامتحان.. الذى يهمنى هو أنت!!».

تنهدت وهى تهز رأسها:

- «هل اصطلحنا؟؟».

اقترب منها أكثر وهتف:

- «بكل تأكيد..»:

- «فليكن موعدنا فى العاشرة مساءً . . » .

قال ضاحكًا :

- «أرجو ألا تكون هناك مفاجآت جديدة . . » .

- «اطمئن . . ستجد مفاجآت لذيذة الطعم . . » .

قال وهو يلعب بحواجبه :

- «أحب الجمبرى . . » .

- «تستطيع أن تحضره معك . . » .

●●●

شعر بارتياح كبير حينما خرج من المكتب ، إن الأمور تحل واحداً واحداً ، وثقل الهموم ينزاح عن قلبه ، ومعالم الطريق الصعب تتضح ، ليفعل أى شىء حتى يؤمن نفسه ، ويحقق غاياته ، وبعدها يمكنه أن يتحرر من كل خوف وحيرة ، ويتحرر من المجاملات المؤلمة ، ويطلق كلمة الصدق فى وجه كل إنسان دون نفاق أو تردد ، عندما يحقق هدفه سوف يولد من جديد ، ويصبح حراً ، لا مكان للحرية مع

ذل الحاجة، أو الخوف من الغد. . هل كُتب عليه أن يخوض في الأوحال والأشواق حتى يحقق ذاته؟؟ وهل الناس مضطرون لفعل ذلك؟؟ «لكن هذا المجنون رشدى صاحب اللحية القصيرة ظل حتى النهاية متمسكًا بشرفه وكبريائه، ولم يحن رأسه أبدًا، كان يرفض منطق المدارة والالتواء، لا شك أنه أبله ساذج، حماقته قذفت به إلى ما وراء القضبان. . لشد ما أكرهه. . كان يريد أن يتزوج فضيلة. . يا له من حقير!! وكان يفرض نفسه على أبيها، لم يستطع أن يستميل قلبها، فلف ودار باحثًا عن مدخل آخر، فكان المدخل أبوها. . الله. . الله. . إنه هو الآخر مثلى يناور كالذئاب. . رشدى القصاص يشكل خطورة فى كل شيء. . في السياسة. . والحب. . والمبادئ. . لهذا كان لا بد من زحزحته من طريقي. . أنا لم أظلمه أو أفتر عليه. . الأمانة - والأمانة وحدها - اقتضت أن أضع تقريرى عنه. . إن المسئولية التى أحملها فوق كاهلى تفرض على أن أكون حاسمًا ومحددًا دون رحمة. . حتى زملائى القادة فى منظمة الشباب لم يسلموا من قلمى، إن فيهم ميولاً

وانحرافات لا يصح التغاضى عنها، وإلا ضاعت المنظمة . . وضاع الحزب . . وبالتالى ضاعت البلد، ليس هذا فحسب، بل إنى اتفقت مع البعض لتكوين مجموعة خاصة تراقب المنحرفين فى المنظمة، وتعمل على زحزحتهم من طريقنا حتى نتسلم زمام القمة . . العمل السياسى لا يعرف الرحمة . . » .

جاءته برقية تطلبه على عجل؛ لأن والدته مريضة، هذا موضوع لا يمكن تأجيله، وخاصة أنه لم يزرها منذ فترة طويلة، إذا تخلف عن هذا الواجب، فيسصبح مضغة فى أفواه أهل القرية، وستغضب أمه وإخوانه، أخذ يومين عطلة عارضة وركب سيارته وانطلق . .

لماذا أصبح يضيق بالسفر إلى القرية؟؟ ولماذا لم يعد يحتمل أحاديث الفلاحين؟؟ ومع ذلك فإن هناك التزامات نحو الأهل لا يجب التفريط فيها مهما ثقلت عليه، وأمطرته بالملل والخنق، وتكاثر الأطفال والنسوة والرجال حول السيارة حينما توقفت أمام بيته الريفى الرث حياهم فى أنفة،

وصافح البعض، وهناك امرأة أصرت على عناقه وتقبيله وهى تقول: «يا ابن الرجل الطيب» تلقى قبلتها باشمئزاز، ودلف مسرعًا إلى الداخل، كان البيت يبدو ضيقًا أكثر مما كان فى الماضى، هل انكمش بفعل الزمن؟؟ أحد الأطفال ضغط على بوق السيارة فالتفت إلى السيارة فى غيظ وهتف: «قلة أدب»، فاندفع المستقبلون نحو الطفل وأشبعوه ضربًا حتى استغاث.. واعتذروا للدكتور على هذا السفه.. ودخل الغرفة الشاحبة الضوء فى وقت العصر.. سمع صوتها الواهن:

– «هل جاء ولدى؟؟ كنت أعرف أنه سيأتى.. اقترب منى يا حبيبى..».

انزاحت النسوة الغارقات فى السوداء عن طريقه، خطا صوبها فى صمت وحزن:

– «أريد أن أقبلك وأضمك إلى صدرى».

جثا على ركبته فوق الحصير المهترئ، ومال برأسه على وجهها، فأخذت تمطر بقبلاتها المتلاحقة، وهى تطوقه

بذراعها الواهنة، والدموع تغرق وجهها، وكاد يختنق فتخلص منها برقة.. قالت:

- «الآن شبعت وارتويت.. بل وشفيت.. رؤيتك أعظم دواء..».

أعدوا له المقاعد الخشبية العتيقة فى الغرفة المقابلة وجلس مع بعض الفلاحين يشربون الشاى الأسود، وانتحى جانبًا بأخيه أحمد خريج الزراعة الثانوية، والذى يعمل فى مديرية التحرير، ودس فى يده عشرة جنيهات، وطلب منه أن يشترى بعض الفواكه للضيوف الذين يتوافدون، وبعد ساعة جاء أمين الاتحاد الأشتراكى فى القرية وبعض الأعضاء والمدرسين والأعيان، إنهم على علم تام بالمكانة العلمية والسياسية التى بلغها الدكتور عادل فتوح.. وأخذوا يطرحون بعض الأسئلة حول الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو يجيب بخبرة وحنكة شأن العالم ببواطن الأمور.. وجاء طبيب الوحدة الريفية بالقرية.. وهمّ عادل للترحيب به، فقد أخبروه أنه يسهر على علاج أمه وراحتها..

قالوا له: إن أمه تريده.. ذهب إليها.. تمتمت:

- «عادل.. ألا تفحصني؟؟ إنني متأكدة أنك لو فعلت فسأشفى تمامًا من كل داء..».

لقد نسي أن يحضر أدواته الطبية معه، كان المفروض أن يكون معه على الأقل السماعة وجهاز الضغط والترمومتر.. لكن الأمر بسيط، فطبيب الوحدة معه حقيبته، كان التشخيص أمرًا سهلاً، الساقان متورمان، البطن يظهر عليها الاستسقاء، والوجه شاحب نحيل، والعيون غائرة، والجسد ضامر..

همس طبيب الوحدة بالإنجليزية فى أذنه قائلاً ما معناه: إنها حالة تليف بالكبد نتيجة بلهارسيا قديمة، وأضاف: إن هناك دوالِ بالمرىء، وإنها نزفت وقاءت دمًا مرتين قبل ذلك، مما استدعى نقلها إلى المستشفى المركزى لنقل الدم.

قال عادل لطبيب الوحدة، وقد انفرد به:

- «ليس لنا فى الأمر حيلة.. فلتواظب على مدرات البول والجلوكوز والفيتامينات و..و..».

وقضى عادل الجزء الأول من الليل جالسًا إلى جوار أمه، كان ينظر إلى الوجه الشاحب الصابر ويتألم، وأمه تتكلم.. وتتكلم.. ثم تغفو.. ثم تعود للكلام.. وهو لا يرد إلا نادراً..

- «كنت واثقة أن دواءك سيشفيني.. هل أحضرت لى دواء معك من مصر؟؟ مصر أم الدنيا.. يقولون: إن جوها يرد الروح.. رحم الله أباك.. كان قد وعدنى بزيارة أهل البيت هناك.. لكنه مات قبل أن يتحقق الأمل.. آه يا دنيا!! لم أكن أعلم أنك..».

أشار ولدها عليها بأن تستريح وتنام؛ لأن الكلام والسهر يرهقانها.. وذهب إلى غرفة فوق السطح، بها سريره القديم، تعود أن ينام فيها كلما أتى.. المصباح الغازى لم يتغير، والمصحف القديم يعطيه الغبار، وصورة «أبو زيد الهلالى» و «دياب بن غانم» ما زال على الحائط، وإن حالت ألوانها الصارخة.. وفى الجانب الآخر سجادة صلاة قديمة معلقة عليها صورة الكعبة المشرفة.. وهناك أيضًا صورته

الفوتوغرافية منذ أيام الشهادة الابتدائية . . لشد ما غيرته الأيام . . السرير نفسه ذو الأعمدة السوداء الأربعة والقبعات النحاسية الصفراء كما هى . . حتى قبقابه القديم هو الآخر ملقى تحت السرير . . آه . . هناك آية الكرسى المذهبة الخطوط تضىء على الحائط إلى يمين الداخل فوق المكتب الخشبى الكالح الذى صنعه له نجار القرية فى الأيام الغابرة . . أين هذا المشهد العتيق من شقته الأنيقة التى يؤجرها مفروشة بألف جنيه فى الشهر . . ألف جنيه . . عندئذ وثب من فوق السرير ، وفتح حقيبته وأخذ رزمة صغيرة من الأوراق المالية ، ثم هبط الدرج ، وقصد لتوه إلى حيث تنام أمه على الأرض فوق حشية باهتة اللون ، وقال :

- «خذى هذا المبلغ لتصرفى منه . . » .

فتحت عينها فى سعادة ، وتمتمت :

- «هذا كثير . . إنه مبلغ كبير . . » .

- «مائتا جنيه لا أكثر . . » .

هتف :

- «يا إلهى . . إننا نستطيع أن نشترى بها ربع فدان وجاموسة . . » .

- «هذه لتنفقى منها . . » .

- «قد تحتاجها أنت . . إنها هنا مستورة والحمد لله . . » .

طول عمرها كانت تتكلم عن الستر وهو مصطلح عقيم يعنى الفقر والرضا بالجدب والحرمان . .

وعاد إلى السطح . . كان يشعر بقدر بسيط من الارتياح ، لعله استطاع أن يفعل شيئًا ، تطلع من النافذة إلى الظلام الدامس الذى يصبغ القرية النائمة ، وتذكر أمه النائمة أيضًا ، ثم ارتمى على السرير ، وانفجر باكيًا . .





[١٣]

عـاد إلى المدينة الكبيرة، تـنفس الصـعـداء، أخـذ يمضى بسيارته وسط الزحـام الهائل، ومع ذلك يشعر بأنه فى عـالـم خـاص منعزل، أمـا فى القـرية فشعـوره يختلف تمـامًا، كل شىء فيها يجذبه إليها من خلال خيوط قوية لا تتمزق، إنه جـزء من كل، لا يمكنه الانفـراد بنفـسـه، حـتى ولو جلس وحـيـدًا وأغلق بـاب الغـرفـة، القـرية كـوكـب يدور بسـرعـة هائلة، وهو يدور مـعـهـا، وفـى المدينة هـو كـوكـب وحـده، ويدور حوله، إنه منغـمس فى التنظيم السياسى، وعضو فى الهيئة التدريسية بالكـلية، وله زملاء وأصدقاء، لكن حواجز نفسية عجيبة تعزله عن كل شىء، قد يأخذ، وقد يعطى فى حدود الحاجة الماسة، لكنه لا يندمج.. أبدًا لا يندمج، إنه ينظر إلى الآخرين هنا بكثير من الشك والخوف والكراهية،

لا وجـود للحب الحـقـيـقـى . . لأن الحب ذوبان واتحـاد ، ومشاركة فى أشياء كثيرة ، إنه أشبه ما يكون بعابر سبيل فى هذه المدينة الصاخبة ، وفضيلة مجرد امرأة مناسبة له ، ولا بد من الاستيلاء عليها ، ومن يأخذها منه سيقضى عليه ويفتك به ، ونادية عبد الباقى وسيلة . . مجرد وسيلة ، أحيانًا يظمأ إليها ، وأحيانًا أخرى يحتاج إليها ، شباب المنظمة بعض رعاياه ، مجرد أكتاف قوية يصعد عليها ، ويهتف طلبًا للجلوس على إحدى القمم العالية والناس يقدسون من يجلس على القمة ، أية قمة . . مهما كانت ، ولو كانت للسرقة والاستغلال والتسلط وتجارة المخدرات . . تجمعهم كلهم صفة واحدة . . القوة الغاشمة . . آه . . إن أمه تموت ! ! هل هناك من يشعر بعذابها ؟ ؟ المصباح الغازى ينطفىء . . تذبل شعلته رويدًا رويدًا . . وليس هناك من يصدر بشأنها نشرة صحية رسمية ، أو يستجلب لها كبار المختصين ، أو ينشر أخبارها فى الصحف مثلما يحدث بالنسبة لنجوم الفن والسياسة والفكر ، النجومية ليست

للفلاحين التعساء، ولهذا، فإنه من الحماقة أن يبقى الإنسان فلاحًا. . ستموت يومًا كما يموت آلاف، بل ملايين العبيد. . ونحن هنا نهتف للحرية، ونناضل من أجل الشعوب المستبدة. . وبصق عن يساره في الشارع. .

قالت له نادية عبد الباقي:

- «تأبى إلا أن تخدعني. .».

همس في حزن:

- «أمي تموت. .».

- «لم أعلم. .».

ثم هزت كتفيها في استهتار:

- «الجميع يموتون. . لا راحة في الدنيا. . أحيانًا يكون الموت علاجًا لكل تعاسات البشر. .».

- «لكنه يبقى دائمًا مأساة مروعة. .».

قالت دون انفعال:

- «ليس دائمًا. . لو تعمقناه لوجدناه أمرًا طبيعيًا . . لا

تترك نفسك نهبًا للأسى . . تعال إلى . . أنت فى مسيس الحاجة للترفيه . . » .

لم يعد يشعر بحماسة لأى شىء ، أين توهجه فى العمل ، وانتشاؤه وهو يقدم على إجراء جراحة مهمة؟؟ وأين تلك الرجفة التى تسرى فى جسده وهو يعرف فى طوفان اللقاءات الآثمة؟

قالت له الدكتور فضيلة :

- «بحثت عنك فلم أجدك» .

همس ودمعة تأبى الانفلات فى عينيه :

- «أمى تحتضر . . » .

رفعت حاجيبها فى دهشة ، وبدا التأثير جليًا على وجهها ، وهتف :

- «كان الله معها . . ومعك . . لم أكن أعلم . . » .

ثم أردف شاردًا بعد فترة صمت :

- «عندما تموت فلن يبقى لى أحد» .

ربتت على كتفيه فى رقة قائلة:

- «الدنيا بخير..».

قال وهو يكز على أسنانه:

- «أين هو هذا الخير؟؟».

- «موجود. دائمًا موجود..».

- «فى الأوهام..».

رددت كلمات لرسول الله ﷺ:

- «الخير فىّ، وفى أمتى إلى يوم القيامة..».

أخذ يجول بنظراته الحائرة فى الأفق الملبد بالغيوم، وتمتم:

- «أراقت ماء شبابها. عاشت تكدح. لم تر يومًا باسمًا فى حياتها. وكم أراقت ماء وجهها أيضًا. كانت الحاجة تكبلها دائمًا بقيود بخسة. لقد أنهكها الفقر والصبر. وها هى تموت فى نهاية المطاف. تموت وتطوى صفحتها ولا يبقى لها فى الدنيا شىء ذو قيمة..».

ابتسمت فضيلة متوددة، وقالت:

- «لا تتكلم هكذا.. أنت لا تعرف معنى السعادة بالنسبة لها، إننى أتخيلها، والدنيا لا تسعها من الفرحة حينما تراك تنجح وتتفوق.. كنت أنت وإخواتك أملها وثروتها ونباتها الأخضر.. إنها لا تفهم السعادة على النحو الشائع من مال ومجد ومنصب.. مَنْ يدرى؟؟ قد تكون أسعد منا جميعًا..».

ذهب إلى اجتماعات الحزب فى السابعة مساءً، كان اللقاء عاصفًا بسبب ما أسموه بالتحركات الداخلية المعادية، وأصابع الإمبريالية التى تلعب فى الخفاء، لم يكن مقتنعًا تمامًا بما يدور من حوار، حاول أن يشرح ما يعانيه الفلاحون من ضيق فى الأرزاق، وبوار فى المحصول، وفساد فى الجمعيات التعاونية التى أنشأتها الحكومة للفلاحين، وما تمتلئ به من انتهازية واستغلال ومحسوبية، لكنهم أفهموه أن هذا الموضوع ليس مدرجًا على جدول الأعمال، وأن أمن البلد الداخلى يفوق فى أهميته مثل هذه الأشياء الجانبية البسيطة، وطلبوا منه أن يكتب تقريرًا يتركه فى الأمانة العامة

حول موضوع الجمعيات التعاونية . . وعادوا يتحدثون عن عدد من المؤامرات هنا وهناك ، ويذكرون أسماء لا يعرف عنها إلا القليل جدًا ، كما أخذوا يخططون لضربة قاصمة لهذه التيارات المعادية ، وإعطاء ذلك أولوية قصوى على ما عداها من القضايا الاقتصادية والسياسية الملحة . . وفهم أن الأوامر قد صدرت للصحف وأجهزة الإعلام بشن حملة ضخمة ضد الرجعية الدينية بالذات ، وملاحقتها أينما وجدت .

وأدرك وهو فى الاجتماع- وفى أثناء الاستراحة - أن الزملاء يسخرون من اهتماماته الغريبة ، وينحون عليه باللائمة لانصرافه عن الجاد من أمور الثورة ، وولوغه فى أمور مصطنعة ليس لها فى الواقع ظل من الحقيقة ، وسرعان ما أفاق إلى نفسه ، وما إن بدأ الشطر الثانى من الاجتماع حتى طلب الكلمة ، وأخذ يفيض فى الحديث عن الثورة المضادة ، وإن ما قيل عن مشكلة الفلاحين ما هو إلا مجرد إشاعات روّج لها أعداء التقدم وعملاء الصهيونية ، وهو لم يطرح مثل هذا الموضوع إلا للتأكد من الدوافع الخبيثة وراء

هذه الحملة المغرضة من النقد لأحوال الفلاحين، واقترح أيضًا أن يتنبه الإعلام لمثل هذا الموضوع الحيوى، كما طالب بضرورة الضرب بشدة على يد الرجعية، والذين يخلطون بين الدين والسياسة، ويسخرون الدين لأغراضهم الخبيثة، كما دعا الأزهر الشريف أن يلعب دورة التاريخى الرسمى فى كشف مناورات المتاجرين باسم الدين، وأشار إلى أنه ليس الخطر من جماعة الإخوان المسلمين وحده، ولكن من كل من يمارس أى نشاط دينى حتى الجماعات الدينية غير السياسية، وفرق المتصوفة، بل ونشاط الكنيسة، وبعد أن انتهى من حديثه وجد ترحيبًا بكل ما قال، فتنفس الصعداء، وتنهد فى ارتياح. . لقد استطاع أن يركب الموجة، ويمضى فى الركب، ويستجيب لهوى القيادة وتصوراتها. . وهذا هو المهم. .

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، واتجه بسيارته صوب العمارة التى تسكن فيها نادية عبد الباقى، حاول التراجع، لكنها لم يستطع، كان قلبه يدق، ويداه ترتعشان. .

السقوط السياسى والسقوط الأخلاقى كلاهما من مصدر واحد . .

ضغط على الجرس بقلب واجف . . على الرغم من خوفه إلا أنه يشعر أن شيطانه يدفعه إليها . . لم ينتظر طويلاً . . فتحت الباب بهدوء . . حينما وقع بصرها عليه تألقت ملامحها الغجرية بالفرحة المباغتة . . اطمأن تمامًا إلى أن الجو مهيأ لسهرة خاصة ، أغلقت الباب ، ثم تلقفته بين ذراعيها فى جوع ، كانت تلبس قميص نوم شفاف وردى اللون ، يشى بمفاتنها الصارخة . . قادته إلى المقعد كالذهول . . كانت زجاجة الويسكى . . والكؤوس . . والميزة فى الانتظار . . جلس يلهث . . غابت لفترة قصيرة ، ثم عادت وفى يدها بعض الأشرطة الموسيقية الصاخبة . .

تمتم وقد قذف بالكأس الأولى فى جوفه :

- «هذا هو العالم . . » .

ضحكت فى ميوعة قائلة :

- «لقد بدأت الفلسفة . . » .

خلع الجاكيت ورباط العنق، وألقى بهما جانبًا . . وقال :

- «الفلسفة فى هذا العصر ليست فلسفة . . » .

- «وكيف؟؟» .

- «الإنسان يبحث عن مبررات لحماقاته وملذاته، ثم يصوغها فى كلمات وقواعد وأفكار، ويسميها فلسفة . . » .

وقذف بكأس أخرى فى جوفه، وقال وهو يضحك فى هستيرية :

- «الفلسفة فى خدمة الشعب . . » .

قالت وهى ترتب المائدة، وتصب فى الكؤوس :

- «المهم أن ننسجم ونفرح . . » .

- «ويجب أن نفهم . . » .

قالت وهى تقرصه من أذنه :

- «فلنخرج هكذا دون أن نفهم . . » .

هز رأسه قائلاً :

- «صدقت يا نادية. . الناس يتخاطبون بوسائل أخرى غير اللغة. . ».

طوقت عنقه بذراعيها العاريتين، وقالت وهى تقبله:

- «مثل هذا؟؟».

تمتم:

- «شيطانة. . ورب الكعبة. . ».

●●●

ألقى بجسده قبيل الفجر فى نوم عميق. . عميق جداً كما لم يفعل من قبل، وصحا مُصدّع الرأس، كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ظهراً. . لم يجدها فى الشقة، وقع بصره على ورقة تحت نظارته الطبية، قرأها، فعلم أنها ذهبت لعملها فى الموعد اليومى لإعداد قائمة العمليات الجراحية، كما طلبت منه أن ينتظرها حتى تعود، وأن لا يفتح باب الشقة لأحد، ولا يرد على التليفون.

جلس إلى طاولة صغيرة عليها طعام الإفطار، «وترمس الشاى» أخذ يزدرد الطعام فى تكاسل، ويشرب الشاى، لم

يكن راغبًا فى أى تفكير جاد، ولهذا تجاهل صحيفة الصباح الملقاة على المقعد المجاور، كما آثر أن لا يدير مفتاح المذياع أو التليفزيون، تطلع من النافذة إلى مدينة الدخان والضجيج والزحـــام، وتمنى أن يظل فى مكانه هذا لسنوات دون مسـئوليات مثل تنابلة السلطان، يأكل ويشرب وينام ويمرح. . ليس لأى شيء قيمة سوى ما فيه من متعة وقتية. . الماضى يموت، والحاضر يصبح ماضيًا، والمستقبل فى وقت من الأوقات سيسمى حاضرًا فماضيًا. . آه كل شيء إلى فناء. . إذا أعود إلى التفكير من جديد دون أن أشعر. . الموت نهاية كل شيء. . لكن الشيخ علام العيسوى قال لى ذات يوم: «الحياة هى الأصل، والموت شيء طارئ لأن بعد الموت حياة أبدية. . وزمن الموت قصير. . قصير جدًا إذا ما قيس بالأبد. . والحياة الدنيا للإنسان أقصر. . »، وتمثل بقول الله ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. . أى إيمان هذا. . إن فرائصى ترتعد كلما قابلت هذا الرجل. . ورشدى القصاص صورة مصغرة منه. . ترى ما مصيره

الآن؟؟؟ هل ما زال على عقيدته وهو يقاسى الأهوال فى المعتقل؟؟؟ ليتنى أزوره لأرى بنفسى!

أرهقه التفكير مرة أخرى ونغصه، حاول أن ينسى أو يهرب، ويبقى فى فراغ ذهنى. . كان يقاوم. . وهكذا أخذته غفوة لا يدرى أطالت أم قصرت، وأفاق من غفوته على يد تهزه فى رفق شديد، فتح عينيه ليرى نادية عبد الباقى واقفة قبالته، وكانت عيناه محمرتين، وكانت تنظر إليه فى إشفاق وهى شاحبة. . تمتم:

- «لماذا أتيت مبكرة؟ الساعة الآن الواحدة والنصف. . وأنت لا تأتين قبل الثالثة؟؟».

ظلت صامتة فترة، ثم مدت يدها، وأمسكت بيده وضمتها إلى صدرها فى قوة، وقالت:

- «تشجع. . أنت رجل. .».

رفع إليها نظرات تائهة كنظرات طفل ضائع، وقال:

- «ماذا هناك؟؟».

أدارت وجهها صوب النافذة، وقالت بصوت حزين :

- «البقية فى حياتك . . » .

صرخ وقد هبّ واقفًا :

- «أمى؟؟» .

قالت :

- «هذا قضاء الله . . عليك أن تذهب فوراً . . » .

ثم ألقت أمامه بالبرقية . .

أمسك بالبرقية، ثم انفجر باكيًا ينشج . .





حظيت أمه -رحمها الله- بعدد كبير من رسائل النعى والبرقيات ونشرات الصحف، لقد تلقى عادل العزاء من زملاء الكلية، ومن رفاق منظمة الشباب، وبعض الأصدقاء فى نقابة الأطباء، كان مظهراً لائقًا به، يتفق ومركزه السياسى والعلمى، وأبرقت إليه فضيلة ونادية، حتى رئيس القسم قام هو الآخر بالواجب، حينما مات والده لم يحدث شىء من هذا القبيل، لو جمعت من الأموال التى أنفقت فى هذه المناسبة لكانت مبلغًا كبيراً من المال، كان يكفى للإنفاق عليه أثناء الدراسة، ولما ألجأه إلى وزارة الأوقاف ليأخذ منها الإعانة الشهرية، والمقرئ الشهير هو الآخر تقاضى مبلغًا لا بأس به، ناهيك بالسرادق الضخم المناسب الذى أقيم فى القرية، والثور الذى ذُبح لإطعام القراء والضيوف، لو

كانت أمه حية الآن لعلّقت بأن ما تم تبذيره كان يكفى لشراء فدان من الطين . .

وفى هذه الأثناء ابتدأت حملة العنف الدامية ضد من أطلق عليهم الرجعية الدينية المتآمرة ، وكان الأمر الصادر بهذا الخصوص هو «اعتقال كل من سبق اعتقاله ، أو المشتبه فى أمره» .

وأخذ رجال المباحث العامة والمخابرات يفحصون الملفات القديمة والحديثة ، وكانت الأولية لمن صدرت ضدهم أحكام سياسية منهم ، ثم من شاركوا فى حرب فلسطين ومعركة القنال ، على اعتبار أن هؤلاء يشكلون الفئة الأكثر خطرًا على الثورة وأمن الدولة ، ولم يفلت من الاعتقال أولئك المنشقون على الإخوان بسبب خلافات الرأى الداخلية ، ولا من انحاز للحكومة من هؤلاء ، وأخذ المعتقلون يتدفقون أنهارًا من كل الأنحاء تحت ظلام الليل ، وفى رابعة النهار ، وعلى عيون الجميع عصابات مربوطة بإحكام ، وفى أيديهم الأغلال ، واكتظت سجون طرة وأبو

زعبل، والقلعة، والحربى، وقنا، والفيوم، وغيرها بالأفواج التى تترى، وأقيم للنساء معتقل خاص بسجن القناطر لأول مرة فى تاريخ مصر.

ونشطت المؤتمرات السياسية الكبيرة التى يخطب فيها الرئيس والقادة، واشتعلت الحملات الإعلانية العنيفة، وأخذ الناس يرتجفون من الخوف، وانتشرت أخبار مرعبة عن قصص الانتقام الرهيب خلف القضبان، وأصبح الناس -كل الناس- يتوجّسون خيفة من مجرد الصلاة فى المساجد، أو حمل كتاب من كتب الثقافة الإسلامية، وكانت الوسيلة المفضلة لكى يحمى الفرد نفسه أن يهاجم الإخوان بعنف، ويرميهم بكل نقيصة ورذيلة مثل ما يفعل الرئيس فى خطبه التى تذاع صباح مساء فى الإذاعة والتليفزيون، وتنشر فى الصحف، وحاولت كل أسرة أن تحيط شبابها بسياج من النصائح، وحملهم على البقاء داخل البيوت بعد العودة من العمل، ولم يعد أحد يجرؤ على زيارة أسرة معتقل من المعتقلين لمجرد المواساة أو العزاء، وتسابق أولياء الأمور إلى إحراق الصحف

والمجلات الإسلامية، كما كانت هذه الفتنة العمياء فرصة لأصحاب النفوس الضعيفة كي يشوا بخصومهم ومنافسيهم فى مجالات التجارة والعمل والترقية، وخلال أيام قليلة تداعت قيم عريقة، وأصبح الجبن والرياء والنفاق سادة الأخلاق، وأخذت العدالة -كما قيل- عطلة لأجل غير مسمى، وطفا على السطح حثالات الشيوعيين والإلحاديين والصليبيين المتعصبين، ولم يعد فى الساحة إلا موضوع الإخوان المسلمين وسيد قطب والهضيبى وأعوانهم، وتسابق الكتاب والشعراء والفنانون فى إفراز سموم الكراهية والعداء، ولم يسجل حادث واحد للدفاع عن آلاف المغبونين المعتقلين. . وتبتدع الصحف مئات القصص عن مؤامرات لا يعلم إلا الله حقيقتها، ويتمرد الشك بين الناس، فيتحفظ الإنسان فى أحاديثه حتى مع أهله وذويه، ويتبارون فى الثناء على الثورة والرئيس والاشتراكية . . ومن العجيب أن بعض الناس أرادوا أن يبعدوا عن أنفسهم الشبهات، فتباهوا بارتكاب الموبقات، وارتادوا المراقص والحانات، والتجأوا

إلى الخمر والنساء كي ينعموا بالسلامة، وقررت وزارة الأوقاف قطع خطب الجمعة الموحدة لتوزيعها على جميع مساجد الدولة، وهي خطب تتغنى بمجد الثورة، وعصمة الرئيس، والخدمات التي تقدمها الثورة للإسلام، وأن الاشتراكية بدورها في صميم المبادئ الإسلامية التي تحفل بالكفاية والعدل، كما أصدر الأزهر الشريف فتوى جامعة شاملة، تدين الفئة الضالة، وتحدثت الفتوى عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، وهو: التقتيل، أو الصلب، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو النفي من الأرض، وظهرت على شاشات التليفزيون شخصيات باهرة مبهرة تتحدث في بلاغة ورصانة عن الرجعية الدينية، وعن عمالتها للصهيونية والإمبريالية، وذاعت أغنيات عبد الحليم حافظ، وعلى رأسها أغنية «دقت ساعة العمل الثوري»، وأخذت الفتيات المراهقات يطلبن السماع للأغنية في «ما يطلبه المستمعون»، أما أسر المعتقلين التعساء، فقد لاذوا بالصمت، ولجأوا إلى مساكنهم، وأغلقوا أبوابهم محزونين مقهورين لا يُعبِّرون

إلا بالدموع والدعاء، وأصبحوا كالفئة المنبوذة التى يوشك ألا يقربها أحد . .

●●●

دخلت فضيلة على أبيها فجأة، فهالها أن رأته يقرأ القرآن ويبكى بحرارة، هزّتها دموع الشيخ الجليل، وجثت إلى جواره فى دهشة :

- «أتبكى يا أبى؟؟» .

قال والدموع تنهمر :

- «عينان لا تمسها النار . . عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله . . وكيف لا أبكى وأنا على أعتاب الوحيل . . ؟» .

أخذت تجفف دموع أبيها الغالية، بمنديلها الأبيض وتقول :

- «أطال الله عمرك» .

- «وما قيمة عمرى إذا لم أعد أستطيع إلا سكب الدموع . . ؟» .

- «لقد أديت واجبك».

- أوَ تستطيع الدموع يا ابنتى أن توقف الظلم، أو تساند المظلومين المقهورين؟؟».

قالت وهى تحاول أن تصرفه عن البكاء:

- «هل أنت متعاطف مع الإخوان المسلمين؟؟».

- «وكيف لا أتعاطف مع الإنسان.. الساكت عن الحق شيطان أخرس..».

تململت فضيلة، ثم قالت:

- «نحن لا نعرف الحقيقة..».

قال بثقة وشجاعة:

- «لو كانت إدانة الإخوان أكيدة، لحاكموهم علانية، وما لجأوا إلى الجلسات السرية، والتعذيب الرهيب، ولأتاحوا لهم الفرصة للدفاع عن النفس، ليس هناك صحيفة واحدة، ولا رجل واحد تجرأ أن يدافع عنهم.. وكل الاعترافات المزعومة باطلة- بحكم القانون- ما دامت قد

انتزعت بالإكراه . . اسألى زوج أختك سيادة المقدم عن ما يجرى فى الحربى والقلعة . . إنهم يقتلون الحب، والانتماء، وكرامة الإنسان . . » .

وصمت الشيخ بضع لحظات، ثم عاد يقول :

- «لقد عاصرت الخديوى والإنجليز . . والملك فؤاد وفاروق . . وثورة ١٩١٩، ولم أشهد قوة ولا عنفًا كالذى يجرى الآن . . أهى رجعة إلى عصور الغاب؟؟ تلك هى الرجعية الحقيقية يا ابنتى . . من يزعم أن هؤلاء آدميون؟؟» .

تمتمت فضيلة :

- «سوف أعد لك فنجانًا من القهوة . . » .

●●●

كانت فضيلة فى هذه الأيام تتابع الصحف باهتمام بالغ، إن الأمر يشد انتباهها بصورة شديدة، إن كاتب الأهرام «هيكل» يكتب فى صفحته الأسبوعية تحت عنوان «بصراحة» عن أخطر كتابين صدرا فى العام الماضى : «معالم

فى الطريق»، و«جاهلية القرن العشرين» القضية كبيرة، ولو لم تكن كذلك، لما حشدت الحكومة هذا الاهتمام كله، ليتها تستطيع أن تقرأ هذين الكتابين، لكن هذا مستحيل؟ لأن تداولهما ممنوع، ومن يمسك به مقتنيًا لهما فسوف يساق إلى المعتقل. . لا فرق بين رجل وامرأة فى ذلك. . وكيف تصدر حكمها على ما يقال من نقد وهى لم تقرأ الأصل؟؟ السلطة وحدها هى القادرة على الإتهام والنقد والتحدث، لكن المتهمين لا دفاع لهم، ولا أرى، ولا صوت. . إنها معركة غير متكافئة، والظلم واضح. . وهى تشم فى الكلمات الرسمية رائحة الغدر والخيانة. .

سألت أخاها سعدًا، قال فى فتور:

- «فى مثل هذا الزمن يصعب العثور على الحقيقة. . ».

قالت فى غضب:

- «أنعيش فى ضباب؟؟».

- «هذا أسلم. . ».

- «بل هو أسوأ ما فى الحياة . . » .

قال وهو يرفع رأسه إلى وجهها المتوتر :

- «هناك حقائق كثيرة نعرفها ، وهذا يكفى . . » .

قالت متساءلة :

- «مثل ماذا؟؟» .

- «مثل . . آه . . مثل الفيتامينات ضرورية فى الغذاء . . مثل الموت حق . . الصبر طيب . . القوة فوق الحق . . التطعيم يحمى الأطفال من الجدرى ، ومن شلل الأطفال . . الباثولوجيا علم نافع . . أليست هذه كلها حقائق؟؟» .

لم ترتح لكلمات أخيها ، إنه يهرب من طرح القضايا الملحة التى تشغل الأذهان ، شعرت بالضيق والغيظ ، قالت :

- «هناك حقيقة أخرى نسيت أن تذكرها . . » .

- «نحن على أبواب كارثة هائلة . . » .

قال لها فى استفزاز :

- «لم تأت الكارثة بعـد، ولهـذا فـلا يمكن تسـمـيتـهـا حقيقة . . » .

صرخت محتدة :

- «ألا ترى؟؟؟ ألا تسمع؟؟» .

- «ومـا جـدوى أن أرى أو أسـمـع؟ إن الأمـور تمضـى فى طريقـهـا المرسـوم . . والحـقـائق يصنعـهـا الأقـويـاء، مـثلمـا يصنعـون التاريخ، والأحداث، والفلسفات، والقوانين، والفنون، ومـصـانـع السـلام، وتصـفيـة الإقطاع، والقـضـاء على الرجعية . . » .

●●●

التقت بالمقدم زوج أختها رندة؛ طرحت أمامه العديد من التساؤلات، كان عزوفًا عن الكلام، ولما ألحت عليه قال فى ملل ظاهر :

- «الإخـوان وبـاء خطيـر . . تصـورى يا فـضـيلة أنه من رحـمـة الله ألا يوجـد فى أسـرتنا هذه واحـد منهم؛ لأنه لو حـدث ذلك . . لكـانت كـارثة . . أقلـهـا أن يطردونى من

الجيش، إن لم يلقوا بى فى السجن الحربى . . والحديث يا عزيزتى فى أمور كهذه محظور تمامًا بالنسبة لأفراد الجيش . . إنه مثل أسرار الدولة العليا، وإذاعة شىء عنه خيانة . . » .

قالت فى دهشة :

- «لكن الصحف تكتب . . والتليفزيون يصور . . والإذاعة ترغى وتزيد . . » .

- «وأنا لست رجل إعلام يا عزيزتى . . » .

- «فقط أردت أن أسأل : لماذا يعذبون المعتقلين . . ؟» .

قال فى صبر نافذ :

- «إنهم يحققون معهم . . » .

ثم صاح ضائقًا :

- «يا رندة . . أنقذينى من أختك فضيلة . . » .

●○○

سألت عادل فتوح :

- «ما رأيك فيما يجرى؟؟» .

ابتسم فى غرور، وقال :

- «ألم أخبرك به قبل أن يحدث؟؟ ألم أقل لك ذات يوم يجب أن تنسى شيئًا اسمه «رشدى القصاص»؟ إن كل شىء مرسوم بدقة، ومخطط له . . عبارة واحدة يجب أن ترسخ فى ذهنك، إن أمن الدولة فوق كل اعتبار . . » .

تمتمت وهى تكتم غضبها :

- «ذئاب ! !» .

عاد يضحك فى تشفٍّ، ويقول :

- «إن لم تكن ذئبًا، أكلتك الذئاب . . » .

زمت شفتيها، وقالت :

- «ماذا يكون موقفك، لو كنت الآن واحدًا من هؤلاء المعذبين . . » .

رد بقوة وثقة لا حدود لها :

- «هذه سقطة لا يفعلها إلا أحمق، الإنسان السوى الطبيعى لا يتدنى لهذا المستوى».

وأفهمها أن الأمر انتهى، وأن الفتنة نامت للأبد، وأصبحت الأوضاع مستقرة، والمسيرة الثورية تواصل عطاءها الإنسانى العظيم، والخونة يلوون أحزانهم وأساهم فى جحور الندم والصمت والظلام، وأعداء التقدمية لا مجال لهم فى عصرنا، وأخذ يردد العديد من الشعارات التى تقرؤها فى الصحف، وتسمعها فى وسائل الإعلام، حتى أوشكت أن تتقيأ. .

توقف فجأة عن الاستطراد فى الحديث، ثم قال:

- ما هذا؟؟ لقد جئت لأمر آخر. . ؟.

ولمّا لم تجب استمر فى حديثه:

- «لا بد من أن نحدد موعد عقد القران. . الوقت مناسب جدًا الآن. . ».

قالت دونما حماسة تذكر:

- «تستطيع أن تقابل أبى».

- «متى؟».

- «في الوقت الذى تراه..».

- «فليكن الخميس.. بعد غد.. أرجو أن تخبريه..».

حينما عادت فضيلة إلى البيت، وجلست مع أبيها، طرحت موضوع القران، وحضر أخوها وإخواتها البنات وأزواجهن، لم يتكلم أبوها فى البداية، لكن بقية أعضاء الأسرة رأوا أنه لم يعد هناك مجال للتأجيل، وخاصة أن عادلاً لديه كافة التعلقات الخاصة بالزواج.. الشقة.. المهر.. السيارة، لكنهم فوجئوا بالدكتورة فضيلة تقول:

- «لكنى مترددة..».

هتف الجميع فى دهشة:

- «كيف؟؟».

قال وهى شاردة:

- «لا أدرى بالضبط، لكنى لا أخفى عليكم أن تغيراً طرأ على نفسى.. لم تعد مشاعرى نحوه كما كانت..».

قالت سميرة الصيدلانية :

- «المسألة مسألة عقل . . » .

- «حتى عقلى هو الآخر . . » .

هتفت رندة أختها :

- «هذه تصرفات مراهقة . . » .

التفتت إلى أبيها فى حيرة ، وقالت :

- «ما رأيك يا أبى ؟ ؟» .

- «أبوك قال كلمته من قديم . . ومضى . . » .

تشبثت بذراعه فى ضراعة ، وقالت :

- «ستكون كلمتك هى الفيصل . . إن وافقت فسيتم كل شىء على الفور ، وإن رفضت ، فستكون نهاية القصة . . إننى أقولها من كل قلبى . . » .

هز رأسه قائلاً :

- «أوه يا حبيبتى . . لقد ثقلت عليك المسئولية . . وها أنت تعودين كفتاة ريفية ساذجة تسلم الأمر لولى الأمر . .

فكرى يا حبيبتى حتى الغد . . وفى المساء سنعقد الاجتماع العائلى النهائى بهذا الخصوص . . لكن لا تنسى أنك مسئولة . . » .

ذهبت إلى الكلية يوم الأربعاء، جلست وحيدة فى مكتبها بقسم الباثولوجيا، الشحوب يظلل وجهها النقى الجميل، وفى عينيها الفاتنتين آثار أرق وحيرة، تذكرت الدكتور عادل . . دق قلبها وهى لا تدرى لماذا، حتمًا سيأتى إليها بعد ساعة ليتأكد من تثبيت وعد الزيارة المهمة الحاسمة مساء الغد . .

جرس التليفون يدق . . لا شك أنه هو . . هى تشعر بعدم الرغبة حاليًا فى الرد . . لكن الجرس يدق بإلحاح . . رفعت سماعة التليفون فى تكاسل :

- «الدكتورة فضيلة علام . . نعم أنا . . آه . . أهلاً يا ست نادية . . خير . . ماذا تقولين؟؟ مستحيل! لا بد وأن تكون إشاعة . . أو أكذوبة كبرى . . » .

ألقت بالسماعة وكأنها فى حلم . .

- «هل ممكن أن يحدث هذا؟؟» .

لو اعتقلوا العالم كله، فلن يعتقلوا الدكتور عادل فتوح . . مستحيل . . مستحيل . . لكنها تزعم أنهم أخذوه أمام عينيها ومن بيتها . . من بيتها؟؟ كيف؟؟ وماذا كان يفعل هناك مرة أخرى؟؟ أيمكن أن يكون بوليس الآداب؟؟ لكنها أكدت لى أن المخابرات هى التى اعتقلته . . » .

وأخذت فضيلة تتحسس فمها وعينيها وأنفها، ثم تنظر حولها لتتأكد أنها لا تحلم . .

●●●



اتسع نطاق الاعتقالات، فعلى الرغم من أن الغالبية كانت من الإخوان المسلمين، إذ يشكلون ما يزيد عن ثمان وتسعين فى المائة، إلا أن هناك مجموعة من الوفديين، والشيوعيين، والرأسماليين، وبعض الجماعات الدينية الأخرى القليلة العدد، وقد قبض أخيرًا على مجموعة أطلقوا عليها فى المعتقل اسم«مجموعة كمال الدين حسين» عضو مجلس الثورة السابق، وبضعة أفراد من منظمة التحرير الفلسطينية، الإسلاميين منهم، وثلاثة أو أربعة من ضباط الجيش لا يعرف عنهم أحد شيئًا، ثم هناك أفراد اعتقلوا دونما أى انتهاء لجماعة، أحدهم يكتب الزجل، وثان ألّف كتابًا يمتدح اتفاقية ١٩٣٦، ويثنى على سعد

زغلول والنحاس، وثالث كان يجرى وراء سيارة الرئيس ليقدم له التماسًا.

وبقى اعتقال الدكتور عادل فتوح لغزًا من الألغاز المحيرة، حتى الصحفى سعد أخذ يضرب كفًا بكف، ويعجب لما جرى، وكان يرجع أن اعتقال عادل ربما كانت نتيجة لبعض الصراعات الداخلية فى المنظمة، وتصفية لحسابات حزبية وراء الستار، وكان هذا التفسير المعقول آنذاك، وتمتم الشيخ علام العيسوى قائلاً: «كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله.. والهرة تأكل بنيها خوفًا عليهم..».

وشعرت أوساط القصر العينى بالارتياح، إن لم يكن الشماتة، فقد عانوا من عنجهية عادل وتهديداته طويلاً حتى كرهوه، وإن أخفوا تلك الكراهية وراء ابتسامات المجاملة والخوف، وأخذوا ينشرون الشائعات حول اعتقاله، فمن قائل إنه جاسوس لإسرائيل، وهناك من زعم أنه شيوعى متطرف، ويقول البعض أنه «متأمرك»، ولم يستطع أحد أن

يتوصل فى البداية إلى الحقيقة المؤكدة ولا غرابة فى ذلك، فالغموض يلف الكثير من الأمور، لكن الحقيقة رواها أحد المعتقلين الذين أفرج عنه بعد ثلاثة أسابيع من اعتقال عادل، فقد حمل رسالة سرية إلى الدكتورة فضيلة بتوقيع عادل، أخبرها فيها بأن سوء الفهم هو الذى أورده هذا المورد التعس، وأفصح عن اعتقاله هو ومجموعة من أصدقائه تضم شابًا أردنيًا يعمل محررًا فى وكالة أنباء الصين الجديدة، وكاتبًا شهيرًا للأغانى ألّف الكثير عن الثورة والرئيس، وكتب مئات القصائد السعبية فى أكبر المجلات المصرية، وناقدًا شابًا يظهر كثيرًا فى المنتديات والندوات الأدبية، بل ومن الطريف اعتقالهم لشاب يشغل منصبًا مهمًا فى منظمة الشباب، ويمت بصلة قرابة إلى وزير الداخلية الحالى، ومعهم أيضًا عضو قديم فى الحزب الشيوعى المصرى، وعدد من مراسلى الصحف الأجنبية، وكانت التهمة الموجهة إليهم- كما كتب عادل- تتركز فى تشكيل تكتل سرى داخل التنظيم الحكومى، للترويج لآرائهم وأفكارهم، ودفع الاشتراكية خطوات سريعة إلى الأمام،

والتخلص سياسيًا وسلميًا من العناصر المعوقة التى تستظل بقوة السلطة الحاكمة وهيمنتها، ولم يؤخذ على عادل سوى أمور تافهة لا يمكن التعويل عليها، مثل بعض الآراء والعبارات التى كانت تصدر عنه، أو بعض اللقاءات الخاصة العرضية، وفى ختام رسالته أكد لها أنه لن يبقى فى المعتقل طويلاً، وأنه سوف يعود إلى موقعه السياسى والعلمى، وكان واضحًا فى رسالته أن يزداد تشبثًا أكثر من أى وقت مضى بحبه لفضيلة، وأنها هى أمله الأول والأخير، وأنه مستعد أن يحارب الدنيا كلها للظفر بها . .

وبعد فترة من الزمن استطاع سعد أن يتوصل إلى المعلومات نفسها التى بعث بها عادل إلى فضيلة، وعلق قائلاً :

- «إن أجهزة الأمن والاستخبارات كثيرة ومتنوعة، ولا يخلو منها لأى موقع . . ولهذا كثيرًا ما تتضارب وتتصارع . . ولا يوجد فى مصر كلها من يمتلك حصانة تحميه من شرها . . الحصانة فقط لهذه الأجهزة . . » .

●●●

حينما ألقى القبض على الدكتور عادل فتوح انفجر ضاحكًا، كان متأكدًا أن ما يحدث ناجم عن خطأ أكيد، وأخذ يشرح للفرقة مكانته فى المنظمة، والاتحاد الاشتراكى، والكلية، لكنهم كانوا تماثيل صماء باردة، لا تجيب ولا تنفعل، أمامهم أمر صريح، ولا بد من تنفيذه، وأدرك على التو أنهم ليسوا من «المباحث العامة» الذين يعرفهم، فسألهم عن هويتهم، فلم يجيبوا بشىء، وأبدى تخوفه من أن يكونوا عصابة تسعى لخطفه، لكنهم ملوا حواره، ولم يعد لديهم بقية من صبر، فجذبه أحدهم بعنف واحتقار، ووضع الأغلال فى يديه، وجروه جرًا إلى خارج شقة نادية عبد الباقى وهى تقف فى ذهول، دون أن تنطق بكلمة واحدة.

جرى العرف فى «سجن القلعة» أن يستقبلوا كل وافد بالضرب والبذاءة مهما كان شأنه، ولا يقدم للتحقيق إلا بعد الانهيار التام، وفقدان كل أمل فى النجاة، وحينما انهالت الصفعات والركلات والسياط على عادل فتوح تدفقت الدموع من عينيه.. وكان يصرخ فى هستيرية «أنا أخلص

المخلصين للثورة. . أنا الذى ضحيت بكل شىء من أجلها. . أنا رجل منكم. . »، وكان هناك «صول» كالح الوجه ينظر إليه فى احتقار، ويغمغم: «لسنا فى حاجة إلى أمثالك. . الخيانة فى دمك». . وأخذ عادل يدق رأسه فى السور الحجرى، ويصرخ من جديد «مستحيل. . مستحيل. . إن هناك أموراً لا يمكن فهمها، ويردد الصول فى برود: «لقد سئمنا هذه الأسطوانة».

كانت الليلة الأولى بالنسبة لعادل قاسية رهيبة، لدرجة أنه فكر فى الانتحار بجدية وصدق، لكنه لم يجد شيئًا يقضى به على نفسه، وأدرك لأول وهلة الفرق الشاسع بينه وبين المعتقلين من أصحاب المبادئ، إنهم يجدون العزاء، ويعتبرون العناء والعذاب قربة إلى الله، أما هو، فإن الأمر يختلف. . لقد قبضوا عليه فى بيت مومس، ورائحة الخمر تفوح من فمه، وثيابه وجسده ملوثان حتى الآن، حتى مبادئ الثورة التى آمن بها- أو تظاهر بالإيمان بها- لاتبدو ذات قيمة الآن، وليس فى سجله سوى التقارير السرية التى قذفت بالأبرياء إلى المعتقل، والخطب الرنانة التى كان

يتـرنم، والشـعـارات التى يرددها، والمكاسب المادية التى محققها. . وهذه كلها أبعد ما تكون عن جلب العزاء لنفسه المحزونة المنهارة، إن لم تكن تضيف إليه مزيدًا من التعاسة والشقاء.

الزنزانة تكاد تطبق بجدراتها وسقفها فوق صدره، والليل يبدو وكأنه يضغط على عنقه بقبضة حديدية، والأفكار اليائسة تموج فى رأسه كبركان. . ترى هل كانت حياته كلها خطأ فى خطأ؟؟ وعاد للبكاء من جديد. . ما أكثر ما يبكى فى هذه الوحدة القاتلة!! إلى متى يظل حبيس هذا القبر؟؟ إنه يكاد يجن. . والنوم يجافيه تمامًا، وفى منتصف الليل فتح باب الزنزانة، وأدخل شاب فى الخامسة والعشرين من عمره تقريبًا. . كان هادئًا باسمًا على الرغم من لهاث أنفاسه. . تمتم القادم:

- «السلام عليكم. .».

رد عادل فى تباطؤ وعزوف:

- «وعليك. .».

ألقى القادم بِصُرّةٍ صغيرة يبدو أن بها بعض الملابس، وقال:

- «كان الله معك..».

لم ينطق عادل، وعاد القادم يقول:

- «أخوك سعيد البواب، خرّيج دار العلوم..».

وظل عادل معتصمًا بالصمت، وبعد بضع دقائق قال سعيد:

- «ألديك ماء؟».

- «لا..».

- «هل أنت من الإخوان..».

صاح عادل في حدة:

- «لا..».

- «شيوعى؟؟».

- «اسكت..».

- «لا بد أنك «فئات أخرى» . . أليس كذلك؟؟» .

أدار عـادل وجـهـه إلى الحـائط ، وتمدد وظهره صـوب زميله ، كان يرقد بالسروال والقميص . . فوق لوح خشبي متسخ . . بينما قام سعيد ، وتميم ، ثم أقام الصلاة ، وأخذ يصلي العشاء . . وبعد قراءة الفاتحة في الركعة الأولى ، تعمد سعيد أن يرفع صوته قليلاً وهو يرتل : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ [طه : ١١١-١١٢].

ووجد عادل نفسه منجذبًا إلى سماع القرآن وهو راقد . . هزته الكلمات . . يا إلهي ! ! لم يكن يعرف هذه الآيات من قبل ، وكيف يعرفها وهو لم يفتح المصحف منذ أكثر من عشر سنوات؟؟ .

وشعر عادل بقدر من الارتياح لوجود هذا الرجل معه ، إن الحبس الانفرادي ثقيل ومؤلم . . لسوف يتحدث إليه بعد صلاته . . إن هذا الانغلاق الذي يطوي نفسه داخله لا فائدة

منه . . لكن الباب فتح من جديد . . وسمع عادل فى الظلام صوتًا أجش يقول :

- «سعيد البواب . . تعال . . مطلوب فى الحربى يا حبيبى أتعرف معنى السجن الحربى؟؟» .

وخرج سعيد . .

وبقى عادل وحده مرة أخرى ، إنه يشعر بحزن شديد لفراق سعيد الذى لم يقض معه إلا دقائق . . لماذا كان جافًا معه؟؟ لشد ما يحس بالندم الشديد ! !

وقضى عادل ورفاقه فى القلعة أسبوعًا . . هذه الأيام السبعة كانت بالنسبة له تساوى العمر كله ، الجراح على أنفه وجبهته ، وخطوط السياط الدامية منتشرة على جسده . . لقد اتسخت ثيابه ، وطال شعر لحيته وشاربه . . ورائحة عرقه تقززه . . ثم تم ترحيلهم إلى السجن الحربى . . لتبدأ فصول المأساة من جديد . . ضرب . . تحقير . . تحقيق . . ورأى فى الحربى الأعاجيب . . ألوان شتى من البشر والجنسيات والتنظيمات . . وهناك أباطرة التعذيب الذين

تسرى أسماؤهم كالأساطير بين الناس منذ سنين. . إنه يراهم رأى العين. . ومرت أيام عشرة. . ثم أخذوهم إلى معتقل «مزرعة طرة» تنفس عادل الصعداء. . وجد الجو هادئًا، والسجانون يستقبلونه لأول مرة دون إيذاء أو سباب. . وكم كانت دهشته عندما رأى بعض المعتقلين بأرديتهم البيضاء القاتمة يروحون ويجيئون دونما حرج أو توتر، وحينما دخلوا أحد العنابر الكبيرة رأى عادل آلافًا من البشر يمرحون ويضحكون. . سأل عادل أحدهم:

- «من أنتم؟؟».

- «ألا تعرف من نكون؟؟ نحن الزبائن الدائمون للمعتقلات. .».

وعرف عادل أنهم من الإخوان المسلمين، وأن هذا المعتقل يطلقون عليه معتقل «المتحفظ عليهم» أو بمعنى آخر الذين لم يقدموا للمحاكمة لعدم العثور على تهم لهم، لكنهم عند دخولهم فى البداية مروا بالتجارب المريرة. . تجارب الفحص والتصفية والتحريات والتحقيق. . ثم

أودعوا هنا حتى يحكم المسئولون فى أمرهم . . وأحيانًا يطلب أحدهم ويرسل إلى الحربى أو القلعة إذا كان هناك ما يستوجب ذلك . .

قال عادل لأحد الإخوان :

- «هل عندكم خبز وسجائر؟» .

- «عندنا خبز فقط ، وسأحضره لك على الفور عندما تصل إلى غرفتك . . » .

وعاد عادل يسأل فى تحفظ :

- «أليس معكم معتقل اسمه رشدى القصاص؟؟» .

ابتسم الرجل ، وقال :

- «الدكتور؟؟» .

- «نعم هو . . » .

- «إنه يساعد طبيب المعتقل فى المستشفى ، وقد يأتى بعد ساعة . . هل تعرفه؟؟» .

قال عادل فى فرح :

- «زميل عزيز . . إنه أعز صديق . . » .

كانت الأوامر الصادرة أن يوضع عادل ورفاقه فى غرفة خاصة بهم، ولا يوضعون مع الإخوان، إن كل فئة يجب أن تكون منفصلة عن الأخرى، وأطلق على عادل ورفاقه المعتقلون الشيوعيون، وقال عادل فى ضيق للعسكرى :

- «لكنى لست شيوعيًا . . » .

- «تلك هى الأوامر . . » .

اغتسل عادل فى دورة المياه، ثم لأول مرة يأكل بشهية على الرغم من أن الطعام الذى أحضر له لم يكن سوى الخبز والجبن، وبعد أن شرب الماء ألقى بجسده فوق «البرشن»، وأغمض عينيه وهو يفكر فى رشدى القصاص . . ترى هل يعرف رشدى أن عادلاً هو الذى أوقع به، وكتب عنه التقارير السرية المتالية؟؟ بل إن عادلاً يعترف بأنه أوعز إلى بعض زملائه ومرؤوسيه فى التنظيم كى يرفعوا تقارير مشابهة ضد رشدى حتى تتعدد المصادر، ويضيق عليه الخناق، لقد كانت جريمة رشدى فى نظره أنه فكّر فى

الزواج من فضيلة، وقبل ذلك كشف سر المعونة التى تقدمها وزارة الأوقاف للطلبة الفقراء. . إن عادلاً يشعر بالتضاؤل. . بل بالخسة والنذالة، لقد وهبه الله سلطة على نحو ما، فاستغلها لإيذاء الأبرياء، هل أجرم رشدى حينما فكر فى الزواج؟؟ وظل عادل يستعرض ذكرياته السوداء، وضرباته الظالمة ضد العدو والصديق على حد سواء، ويتذكر لياليه الحمراء فى مخدع نادية عبد الباقى. . إنه يعترف بينه وبين نفسه أن هذه التصرفات هى جريمته الحقيقية، وليست تلك الشبهات السياسية الفارغة التى أتت به إلى هنا، يبدو أن الله قد أراد أن ينتقم منه بالأسلوب نفسه، فحرك فئة من زملائه فى المنظمة والحزب كى يسطروا التقارير ضده، فيقع فى ما أوقع فيه غيره من مآزق. . إن ما مضى قد مضى، ولا حيلة له فى محو الرذائل التى صعنها بحقده وغبائه. . واستغرق عادل فى نومه. . ولا يدرى هل طال به النوم أم قصر عندما هزته يد حانية برفق، وفتح عينيه ليرى أمامه رشدى القصاص بوجهه الشاحب الطاهر الباسم، ولحيته السوداء الصغيرة، وعينيه الواسعتين اللتين تشعان إيمانًا ونورًا وسعادة.

وثب عادل من مرقده، وطوق رشدى بذراعيه، وأخذ يضمه إلى صدره فى حب حقيقى:

- «أهو أنت يا رشدى؟ الله وحده يعلم كم أنا سعيد بلقائك. . أشعر الآن أن كل شر قد زال ما دمت معى. .».

تمتم رشدى بصدق:

- «محنة وتزول. . .».

وانفرطت دموع عادل، وقال:

- «لقد ثقلت ذنوبى. . وكان لا بد أن أشرب من الكأس نفسه. .».

قال رشدى وهو يربت على كتفه:

- «يغفر الذنوب جميعًا. . إنه هو الغفور الرحيم. .».

لقد شعر عادل بارتياح كبير، كان كمن يسير فى صحراء جرداء ليس فيها سوى القيظ والعواصف والوحوش، والرعب يلاحقه من كل جانب. . أما الآن فقد انزاح عن قلبه الهم والغم، رشدى إلى جواره، وهذا منتهى

الاطمئنان والأمان، هو يعلم أن رشدى مجرد معتقل مثله، لا يملك من أمره شيئًا، لكن نظرات رشدى وكلماته ومواساته تحمل إليه أروع العزاء . .

- «متى نخرج من هنا يا رشدى».

- «ما المسئول عنها بأعلم من السائل . . ».

- «هذا ظلم . . ظلم لا مثيل له . . ».

- «الصبر طيب . . وفى السجن يجب أن تكتم مشاعرك وإلا بقيت فيه إلى الأبد . . والحيطان لها آذان . . ».

●●●

خلال الأسابيع التالية استطاع عادل أن يتأقلم مع جو المعتقل، وخفت حدة غضبه ومشاعره الصاخبة، لم يكن أمامه سوى أن يرضى بما هو مقسوم، ويصبر على البلاء، فالآلاف من حوله يمارسون حياتهم فى انتظار الفرج . . الذى سوف يأتى . . ربما اليوم . . ربما غدًا . . وربما فى عيد الفطر، أو عيد الأضحى، أو عيد الثورة، أو عيد النصر . . الأمل يتجدد دائمًا، ولا مفر من ذلك . . ولا بد أن يداوم

على كتابة برقيات التأييد للرئيس وللثورة، وعرائض الشجب للرجعية وأعداء الشعب، حتى يؤكد ولاءه وانتماءه للحزب، برغم الكدمات التى ما زالت فى وجهه وجسده.. فهو- كما يزعم أمام المسئولين فى المعتقل- يلتمس العذر للحكومة ولرجال الأمن فى الإجراءات العنيفة التى تُتَّخذ حماية لمستقبل الأمة وسلامتها، ويؤكد ذلك فى كل مرة، مع إيمانه الكامل بأنه يكذب ويدارى حتى يخرج من هذا الجب اللعين..

●●●



على الرغم من هدوء الأحوال فى المعتقل إلا أن عادلاً أخذ يتبرم بهذه الإقامة التى تبدو بلا نهاية معروفة، إنه يعتقد أن الوقت هو الحياة، لكن الدقائق والساعات والأيام تمر ثقيلة متلكئة بلا معنى، فالكتب لا يُسمح بها، والصحف والمجلات الحكومية وغير الحكومية ممنوعة، وحيازة الأوراق والأقلام جريمة لا تغتفر، والأهم من ذلك أن امتحان الدكتوراة قد اقترب موعده، تمتم بينه وبين نفسه قائلاً: «لا بد أن أخرج قبل الامتحان، وإلا سبقنى رفاقى فى الدور» حينما أبان عن أفكاره لزملائه سخروا منه؟ لأن موعد الخروج من هذا المكان مجهول، شأنه شأن كل شىء فى البلد، وبالطبع فإن المسئولين لا يفكرون فى قضايا تافهة كهذه تخص بعض الأفراد، ومع ذلك فإن هذا

الموضوع أصبح شغله الشاغل، لعله أصبح أهم من قضية الشرق الأرسط، والاشتراكية، والأزمة الاقتصادية، وأمن الدولة، وعلم عادل مصادفة أن لائحة السجون والمعتقلات تنص على أن للسجين الحق فى حضور الامتحان، وتساءل عن السبب فى عدم الاستفادة من هذه اللائحة، وخاصة أن نسبة كبيرة من الطلاب يعيشون فى المعتقل، لكنه لم يجد جوابًا على سؤاله سوى الابتسامات الساخرة، والنظرات العاتبة.

أصبح نومه أرقًا، وذكرياته دموعًا، وآماله سرابًا، وأمجاده السابقة عبثًا، وهذا الجو العاصف الخانق لا تنبت فيه زهرة، ولا يشرق فيه فجر ندى، القتامة والبؤس والسواد هى كل ما يقتاته من طعام روحى، حتى أوشك على الكفر بكل قيمة. . لكنه حينما سمع اسمه يدوى فى «ميكروفون» المعتقل هب واقفًا، وأخذ يتلفت فى دهشة، وتمتم «ما الحكاية؟؟» جاءه صوت أحد الرفاق قائلاً:

- «واحد من اثنين، إما الإفراج أو التحقيق. . ».

دق قلبه، هل يمكن أن يفرجوا عنه بهذه البساطة؟؟ ولم لا؟؟ لم تثبت إدانته فى ارتكاب جريمة، ومن حقه إذن أن يخرج إلى عالم الحرية، ويستأنف حياته، ويلحق بركب الامتحان. . إن التحقيق من جديد أمر مستبعد، ولم يكن هناك أدنى شك فى براءته. . دق الباب بقبضة متشنجة دقات تكاد تكون هستيرية ليعلن للسجان عن مكان وجوده، وسمع إيلاج المفتاح الحديدى الضخم فى ثقب الباب. .

- «أنت المعتقل عادل فتوح؟؟».

- «نعم أنا هو. . خير، ماذا تريدون منى. . ؟».

جذبه العسكرى من ذراعه قائلاً:

- «تعال. . وما أدرانى؟؟».

كان مكتب المأمور أنيقًا، تَرِفُّ فيه مروحة كهربائية، ويغمره ضوء مبهر برغم شمس النهار، ورائحة القهوة فى الفناجين تداعب خياشيمه فى القسوة. . منذ مدة لم يذق

القـهـوة التى يعـشـقـهـا . . على الرغم من أنهـا تركـيـة . . والسـجائر الممنوعة فى العنابر تملأ سـحـبهـا المكان . . لشد ما يتشوق إلى واحـدة . . لـم يهتم أحـد بحضـوره ، فالمأمـور ظل يتحـدث مع ضباطه ، تاركين عادلاً واقفًا دون اكتراث ، قال العسكرى وهو يؤدى التحية :

- «تمام يا أفندم» .

قال المأمور باستهتار :

- «ما اسمك؟؟» .

- «الدكتور عادل فتوح . . معيد بكلية الطب . . » .

ابتسم المأمور فى سخرية وهو يقيسه بنظراته :

- «لا فرق هنا بين دكتور وتومرجى . . المهم تعال وقّع هنا بإمضائك . . » .

قال عادل فى ذل :

- «خير يا بك؟؟» .

-« وهل وراء أمثالكم أى خير؟؟» .

صدم عادل، لكنه كظم أساه، وتمتم:

- «تحت أمرك يا أفندم..».

أفهمه المأمور أن سبب استدعائه هو التوقيع على توكيل خاص بصرف مرتبه عن الشهور الثلاثة الماضية، وسأله عن من يريد أن يوكله فى هذا الأمر، ولم يستطع عادل أن يجب بالسرعة المتوقعة.. إنه يفكر فى أصدقائه.. لا.. ليس فيهم من يحبه.. أن يثق فيه.. فكر فى أسرته فى القرية.. ثم فكر فى بعض زملائه فى المنظمة أو الحزب.. يا إلهى ليس فيهم من يصلح، وفجأة وثبت إلى ذهنه صورتها.. إنها فضيلة.. ولا أحد غيرها.. وشعر بالارتياح التام لذلك، وسرعان ما سجل اسمها، ووقع على التوكيل.. سيكون هذا التوكيل رسالة صامته إليها تحمل أقوى المعانى وأعمقها.. إنها إنسانة ممتازة بحق، لم يعرف قيمتها إلا فى هذه الأوقات العصيبة.. أكان يمكن أن يوكل نادية عبد الباقى التى قبض عليه فى بيتها؟؟ مستحيل.. إنه يكرهها كما يكره هذه الأيام الطافحة بالسواد والعذاب.. وعاد إلى غرفته شاحبًا حزينًا.. كان الرفاق فى انتظاره على أحر من

الجمر، بعد أن جلسوا دقائق يضربون أخماسًا فى أسداس، ظنًا منهم أن التحقيق الرهيب قد يفتح من جديد، إن أسوأ الاحتمالات هى الأقرب إلى تصوراتهم فى هذا العالم القبيح الردىء على حد تعبير الناقد الأدبى المعروف المحبوس معهم، لكنهم تنفسوا الصعداء عندما علموا بموضوع التوكيل..

جاء رشدى القصاص باسمًا كعادته، وقال لعادل مصافحًا:

- «مبروك التوكيل..».

هز عادل كتفيه فى تبّرم قائلاً:

- «بارك الله فيك.. وما قيمة التوكيل؟؟».

- «إنه يعنى أن الإدانة بعيدة عنك..».

رفع عادل رأسه فى اهتمام، وقال:

- «وأنت؟».

- «أنا أكتب التوكيل منذ دخلت هنا..».

- «باسم من؟؟» .

- «لا أحد لى فى القاهرة سواه . . » .

- «من تقصد؟؟» .

- «الشيخ علام العيسوى أطال الله عمره . . » .

شعر عادل بالانقباض، لكنه حاول إخفاء مشاعره، ومال بالحديث إلى جوانب أخرى، أهمها الإفراج، ومتى يكون؟؟ وأبدى عادل ضيقه بالأيام الرتيبة الرخيصة التى تمضى هنا بلا معنى، وبالشعور المؤلم بأن روحه المعنوية تتضاءل يومًا بعد يوم، قال رشدى القصاص :

- «نحن الذين نعطى الزمن قيمته بتصرفاتنا وأفكارنا . . » .

- «هل نحن سوى حيوانات تأكل وتشرب وتنام؟؟» .

قال رشدى بثقة :

- «لم لا يكون سجنك خلوة، وصمتك فكرًا، وكلامك ذكرًا، وبلاؤك صبرًا؟؟» .

- تتكلم مثل الشيخ علام العيسوى».

- «كان نبى الله إبراهيم فى صندوق خشبى صغير، . وألسنة الجحيم المشتعل تطبق عليه من كل جانب. . قال له جبريل: ما حاجتك يا إبراهيم. . قال: أما منك فلا، وأما منه فعلمه بحالى يغنى عن سؤالى. . ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ونجاه الله من الكرب العظيم. . أتؤمن بذلك؟؟».

صرخ عادل ودمعة تتأرجح بين أهدابه:

- «لا أستطيع. . ولست نبيًا لأنتظر معجزة. .».

قال رشدى وهو يربت على كتفه:

- «لكن رحمة الله باقية. . ألم يقل: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]؟. .

جفف عادل دمعته، وقال:

- «أنتم لستم بشراً. . من أنتم؟؟ كيف تحتملون هذا العناء؟؟ إننى أفكر فى الانتحار كل يوم. .».

وأدرك رشدى أن عادلاً فى حالة هياج نفسى شديد، وكان لا بد أن يفتح أمامه باب الأمل حتى تهدأ خواطره، وينتعش الأمل فى قلبه، قال:

- «أخبرنى طبيب السجن أن الحكومة ستفرج عن مجموعة فى عيد الثورة القادم. . ».

بدا الاهتمام على وجه عادل، وقال:

- «سيكون الامتحان قد فات. . ».

- «من يدرى قد يعجلون بالأمر، على الأقل بالنسبة لمن ثبت عدم تورطهم فى عمل ممنوع. . ».

قال عادل وسمة الجد تبدو على حديثه الواثق:

- «بالتأكيد. . نعم بالتأكيد. . إن المسئولين يعرفون من أنا، وزملائى فى الحزب والتنظيم لن ينسوا فضلى. . هناك من سيتوسط من أجلى. . إننى مؤمن بذلك تمامًا. . ».

وذهل الرفاق حينما رأوا عادلاً فى أحد أيام الجمع يمسك بمصحف ويقرأ فيه سورة «الكهف» أخذوا ينظرون إليه فى دهشة بالغة، قال أحدهم:

- «لقد التقط رفيقنا ميكروب العدوى من الإخوان» .

ورد آخر فى سخرية :

- «لم تكن لديه المناعة الكافية . . نسى أن يأخذ حقنة التطعيم . . » .

قال ثالث :

- «الخوف واليأس يدفعان الإنسان للسباحة فى بحر الغيبيات والتفكير فى الجنة . . » .

سمعهم وهم يتهامسون ، كان حاد السمع دائمًا ، توقف عن القراءة ، وقال دون أن يرفع رأسه عن المصحف :

- «الرئيس زار بيت الله ، ويصلى فى الأزهر والحسين ، ويُضمِّن خطبه الآيات القرآنية . . هل نسيتم؟؟» .

ولمّا لم يجب أحد على ملاحظته استطرد :

- «والميثاق يسجل فى صفحاته الإيمان بالقيم الروحية . . » .

قال الناقد الأدبى المعروف :

- «ليس هذا دليــلاً . . والســيــاســة تقــضى بعض «الديكورات» الضرورية . . إن هناك بعثة حج رسمية تخرج من الاتحاد السوفيتى كل عام . . » .

أغلق المصحف ، ووضعه إلى جواره فى هدوء ، وقال :

- «ماذا تقصدون؟؟» .

سددوا إليه نظرات خبيثة ، ولم ينطق أحد ، فصرخ :

- «تكلموا يا أوباش . . » .

هتف أحدهم والحقد يقطر من كلماته :

- «لعلك تريد أن تكتب «تقريراً سريًا» جديداً؟؟» .

هب وقفًا ، وقال :

- «تتهموننى بالخيانة والجاسوسية إذن؟؟» .

- «ليس هذا جديداً عليك . . » .

دارت به الأرض ، تدفقت فى قلبه ينابيع الحقد القديم ، والغضب المكتوم ، وانقذف صوبهم فى جنون ، وأخذ يكيل اللكمــات والركــلات لمن يصــادفــه ، تعــالى الضــجــيج

والصـــراخ، كـــان الوقت قـــبل الظهـــر، وأبواب الغـــرف مـفـتـوحـة، وهرول السـجـانة، وأخـذ أحـدهم ينفخ فى صفارته، ويصرخ:

- «تمام.. كل الســجن تمام.. كل مـعـتـقل يدخل غرفته..».

وفى دقائق كانت الأبواب قد أغلقت، وحضر مأمور السجن والضباط ومزيد من العسكر..

قال أحد الإخوان:

- «ماذا جرى؟؟».

رد رشدى القصاص، وكان آخر الداخلين إلى الغرفة بعد مجيئه من المستشفى:

- «أصحابنا الشيوعيون يضرب بعضهم بعضًا..».

ووثب أحـد الإخـوان نحـو النافـذة العـاليـة، وتشبث بقضبانها ليراقب ما يجرى فى الخارج، واستطاع أن يرى من بعـيـد طابور الشيـوعـيين يسـيـر خـارج العنبـر، والعـسكر

يتسابقون إلى ضربهم على أقفيتهم، وهتف وهو ما زال متشبثًا بالقضبان:

- «لقد ساقوهم إلى زنازين التأديب».

وبعد لحظة قال:

- «صديقك عادل فيهم يا دكتور رشدى. . يا إلهى!! لقد ركلوه وسقط على الأرض. . سقط معتقل آخر. . العسكر يدوسونهم بالأحذية الثقيلة. . ».

وعلق أخ عجوز قد تخطى السبعين متمثلاً بكلمات من كتاب الله قائلاً:

- «. . ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] صدق الله العظيم». .

●●●

بقى عادل ورفاقه فى زنازين التأديب الانفرادى خارج العنبر أسبوعين، ولم يكن يسمح لأحد بالاقتراب منهم إلا سجان التأديب، أو الطبيب، أو من ينوب عنه، وقد أجرى

معهم تحقيق دقيق حضره أحد ضباط المباحث فى الداخلية، وبدا واضحًا أن ذلك الضابط- الذى سبق وحقق معهم من قبل عند دخولهم المعتقل- لم يكن متضايقًا لما جرى من خلاف وتصادم، بل على النقيض من ذلك كان سعيدًا؛ لأن مثل هذه الخلافات تكشف لرجال الأمن مزيدًا من الخفايا والأسرار، فضلاً عن أن الأحقاد الشخصية قد تدفع البعض لإزاحة الستار عن أمور كامنة لها دلالاتها، وأخيرًا قال ضابط المباحث:

- «لسنا شيوعيين.. ولسنا إخوانًا.. ولكننا ثورة..».

رد عادل على الفور:

- «أنا ابن الثورة.. هذا ما يعرفه الجميع..».

واستمر الضابط فى حديثه:

- «الروس أصدقاؤنا، لكنا لسنا شيوعيين.. والإخوان أعداؤنا لكننا لسنا ملحدين.. هذه البديهيات يجب أن تعوها جيدًا، وإلا قطعنا رقابكم جميعًا.. والمعتقل ليس ناديًا سياسيًا، ولا مجال للصراعات فيه.. أتفهمون؟؟».

ردوا جميعًا بصوت واحد :

- «نفهم يا أفندم . . » .

- «المعتقل مجرد رقم . . كلكم سواء . . لا ثقة فى أحد منكم . . ومن يرفع رأسه نحطمها . . مفهوم؟؟» .

ردوا جميعًا :

- «مفهوم يا أفندم . . » .

- «يمكننا أن نحيل الكرابيج إلى مشانق فى أية لحظة . . إن البلد مشغولة بكبريات الأمور ، وأنتم تعبثون كالأطفال . . ويا ويل من ينسى قواعد الأدب . . مفهوم . . » .

قالوا بصوت واحد قوى واضح :

- «مفهوم يا أفندم . . » .

لم ينس رشدى القصاص صديقه القديم أثناء محنته فى التأديب ، فقد كان يهرب إليه بعض الأطعمة الإضافية بموافقة طبيب السجن ، وكان يوصى به سجان التأديب

خيراً، ولهذا كان نصيبه من الضرب أقل بكثير من نصيب زملائه، وكان عادل سعيداً بهذه المؤازرة وتذكر فى مرارة.. التقارير السرية التى كتبها رشدى، والتى كانت سبباً فى حبسه، فشعر بسياط الندم تلهب ضميره، كانت أشد إيلاماً من سياط العسكر، لكن ما فات فات، وقد أراد الله أن يشرب من الكأس نفسها المريرة التى شرب منها رشدى الضحية البريئة، ومن عجب الأقدار أن يكون رشدى هو الذى يداوى جراحه، ويحنو عليه.. وقبل أن يغادر عادل سجنه الانفرادى بيومين جاءه رشدى بعد العصر قائلاً:

- «أحضرت لك الأقراص المنومة التى تريدها.. لكن تذكر أن بعض المسجونين يستخدمونها فى الانتحار.. ولوائح السجون شديدة.. لكنى أوصيت الطبيب أن يمدك بها عند الضرورة..».

قال عادل فى دهشة:

- «ولماذا لا تحضرها أنت؟؟».

خفض رشدى رأسه، وقال فى حرج:

- «سيفرجون عنى صباح الغد . . » .

لم يصدق عادل أذنيه، فتح عينيه على آخرهما قائلاً :

- «لم أسمع جيدًا، ماذا تقول؟؟» .

- «لقد صدر أمر الإفراج عن مائة معتقل . . » .

هتف فى ذعر :

- «وأنا؟؟ لماذا لا يفرجون عنى؟؟ تكلم . . » .

- «بالطبع ستخرج إن شاء الله فى دفعة قادمة . . » .

انفجر عادل باكيًا :

- «إنى فى مسيس الحاجة للخروج . . أكاد أجن . . لماذا يتركوننى . . لماذا؟؟ لماذا؟؟ . . » .

وأخذ يدق رأسه فى الحائط كطفل متمرد، أمسك به رشدى واحتضنه فى رفق، وقال :

- «لا يصح أن تفعل ذلك . . كن رجلاً . . » .

- «أنا مظلوم . . مظلوم . . » .

قال رشدى وهو يجفف له دموعه :

- «لن يجدى غير الصبر ، والأيام تمر . . كل شيء عنده بمقدار . . غداً تخرج بإذن الله . . وسيصبح كل ما أنت فيه اليوم مجرد ذكريات . . وستستفيد كثيراً . . » .

هتف محنقًا :

- «أي فائدة والامتحان على الأبواب . . . » .

قال له رشدى وقد نقر السجّان على الباب ليخرج :

- «سأمر عليك فى الصباح قبل رحيلى . . وأنا على استعداد لتنفيذ ما تكلفنى به فى الخارج . . » .

أفاق عادل من ذهوله . .

وجد نفسه وحيداً ضائعًا فى الزنزانة الكئيبة . .

انفجرت دموعه من جديد . .

تلفت حواليه . . وجد الأقراص الثلاثة . . ابتلعها دفعة واحدة . .

●●●



كـانت المشـاهـد تتـوالى من خـلال الزجـاج ، وسـائق التاكسى يتمايل طربًا مع أغنية عاطفية في المسجل ، البنايات والسيارات وخلق الله يمرون أمام بصره كشريط سينمائى ، لكن صـورة القـابعين هناك خلف الأسـوار فى الزنازين لا تفارق خياله ، إنها تمتزج بكل ما يراه في الشارع ، آخر ما مر برشدى فى المعتقل كـانت صلاة الفـجر ، كان الإمـام يقرأ سـورة النجم . . ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ١-٣] .

ترى ما هى العلاقة بين النجم ، وبين ما يأتى به المصطفى من وحى؟ النجم يتألق بعيدًا فى الأفق . . يتألق فى الليل

كالأمل . . وكيف الوصول إليه؟؟ إنه صعود روحى لا شك . . والصعود يحتاج إلى قوة خارقة لا تسعفها ماديات الطاقة المعروفة، ولا التكنولوجيا المستحدثة . . بعد الصلاة خرج إلى فناء السجن الكبير حيث احتشد باقى إخوانه، وظلوا جالسين على الأرض حتى أشرقت الشمس، وغمر الضوء المكان، وأخذ كل فرد يتسلم «أماناته» ويوقع على العديد من الأوراق، وفى العاشرة حضر «المسئول الكبير» من المباحث، وحوله كوكبة من العسكر يتقدمهم مأمور المعتقل وضباطه، وكان لا بد من خطبه يلقيها المسئول بلكنة متكبرة مستعلية قال: « . . لقد عفونا عنكم كتجربة . . إن من يلعب بذيله لن يرى الحياة مرة أخرى، إن عدم ثبوت أى تهمة عليكم ليس معناه أنكم أبرياء . . أعرف أنكم ملاعين، وما كان يجب أن تخرجوا لولا الرئيس صاحب القلب الكبير . . وعمومًا، فأنتم لا تستطيعون الإفلات . . دائمًا تكونون تحت سمعنا وبصرنا . . ونحن قادرون على معرفة ما يجرى بين الزوج وزوجة عندما نشاء . . الشخص الصادق فى توبته منكم هو من يتعاون معنا . . لا بد من

الإبلاغ عن أى قول أو فعل يشتم منه كراهية الحكومة أو نقدها، لا أريدكم أن تكونوا سلبيين، وتعتزلوا الحياة. . لا بد أن تصبحوا جنودًا أوفياء للثورة على الرغم من أنكم معزولون سياسيًا، أثبتوا توبتكم بالتعاون معنا، وليس فى ذلك ما يشين؛ لأن حماية الثورة فرض على الجميع، ومن لا يؤمن بذلك فهو خائن. . ربما أهين أو ضرب بعضكم، وليس هذا مدعاة لغضبكم، إن عملية «الفرز» التى نجريها عليكم تلجئنا إلى ذلك. . وستكون الإدارة على استعداد لحل ما يعرضكم من مشاكل. . والمخلصون منكم ستكون لهم مكافآت سخية من كل لون. . والمتلاعبون نستطيع أن نجرهم إلى المعتقل فى أى وقت. . مفهوم؟؟ وكالعادة صاحوا بصوت قوى مسموع: «مفهوم يا أفندم».

وحينا فتح رشدى باب شقته الصغيرة وجد كل شىء على حاله، الأثاث المبعثر عقب التفتيش منذ الشهور، الأطباق المتسخة فى المطبخ، والتى لم يمهلوه كى يغسلها، وكتب الباثولوجيا الضخمة تترامى، وكأنه لا يعنيها شىء، وصحيفة قديمة تتصدرها صورة الرئيس وقد علاها الغبار، وفأر ضخم يفلت من بين قدميه مذعورًا، وبضعة صراصير

فوق الوسادة والمنشقة، وجلباب النوم معلق على مسمار فى الحـائط. . الزمن توقف هنا، وكل شىء- فـعـلاً- على حاله. .

لم يتوقف طويلاً، إذ سرعان ما بدأ حملة التنظيف والتطهير، بعد أن فتح النوافذ لتتدفق الشمس، وظل يعمل بجد حتى أذان المغرب، فاغتسل بسرعة وبدل ملابسه، ثم استعد للنزول إلى الشارع. .

حينما دخل المسجد الإمام الحسين شعر ببرد اليقين والسلام، وجد جماعة قائمة فالتحق بها. . وما إن أتم الصلاة وختمها حتى صلى النفل، ثم قصد المقصورة. . هناك وجده جالسًا يتلو آيات القرآن الكريم. . جثا رشدى على ركبتيه قبالته وألقى السلام، ورفع الشيخ العجوز رأسه، ودقق النظر وهو لا يكاد يصدق:

- «رشدى».

واحتضنه الشيخ علام العيسوى فى شوق قائلاً:

- «لقد عاد إلىّ رشدى».

امتزجت الدموع، وكان ذلك أغنى من أى تعبير . . قال الشيخ العيسوى، وهو يحاول الابتسام:

- «هذا عناق الأجيال».

وأمسك بيد رشدى وضغط عليها فى حب قائلاً:

- «هيه . . هل وجدت الجواب؟؟».

- «وجدت يا شيخى إجابات كثيرة لتساؤلات كثيرة . . كانت تبرق بين ألسنة النيران، وبين خيوط الدم المنسكب، وفى سواد الليل العقيم . . ».

أردف الشيخ قائلاً:

- «وفى ابتسامة الفجر الوليد . . ».

تمتم رشدى:

- «الزبانية لا يبتسمون فى الحقيقة، بل يقهقهون كالشياطين . . ».

قال الشيخ:

- «الفجر فى قلبك . . ».

- «أجل . . أعرف . . » .

- «وقلوب العاشقين لها عيون . . » .

- «حاولوا طمس كل شيء يا شيخي . . » .

- «لن يقتلوا العشق . . » .

هز رشدي رأسه قائلاً :

- «إنه حياة الروح . . » .

- «كنت معك . . » .

نظر رشدي إليه طويلاً ثم قال :

- «وكنت معك أيضًا . . » .

- «أشعة الروح تخترق السدود . . إنها أقوى من أشعة إكس التي تتحدثون عنها مليون مرة . . » .

تألقت درر الدموع في عيني رشدي الواسعتين ، وقال :

- «يا له من كرب عظيم . . » .

- «كان بمثابة تطهير وتنقية . . » .

ومسح الشيخ العيسوى على ظهره فى رقة، وقال:

- «قد عرفت الطريق.. فانطلق..».

لم تصدق فضيلة النبأ بعد أن أكد لها أبوها أنه رأى رشدى شخصيًا فى مسجد الإمام الحسين، كانت تتصور أنه لن يخرج أبدًا من المعتقل- على الأقل فى هذه الأيام المدلهمة المضطربة- ولم تظن أن يكون خروجه قبل عادل، وذهب الشحوب عن وجهها، وتألقت الحيوية فى عينيها، وتورّد خداها.. قالت لأبيها:

- «إنهم ما زالوا يعتقلون الناس، فكيف يفرجون عن بعضهم..».

قال فى هدوئه المعهود:

- «لعبة القط والفأر.. أو قصة الذئب والحمل.. أو الثعبان والحمامة.. هل تدرين حكايات كليلة ودمنة؟؟».

- «لقد نسيتها يا أبى من زمن بعيد..».

- «لكنها رموز لما تحدث كل يوم فى حياتنا..».

ابتسمت فضيلة، وقالت:

- «ولهذا قطعوا رقبة ابن المقفع الذى كتبها..».

- «لكنها عاشت بعد موته.. وترجمت للغات الدينا يا ابنتى..».

- «والأطفال لا يعرفون أن كاتبها دفع حياته ثمنًا لها..».

- «المهم أنهم يستمتعون ويسعدون بها..».

كان من الصعب على فضيلة أن تنام ليلتها، الأحداث القديمة تنثال بلا رحمة وتذكرها بما مضى، وتحاول أن تهرب حتى تنام، ولكن بلا جدوى، كان رشدى وعادل يقفان قبالتها فى ظلام الغرفة الدامس، وهى قاض يجلس على أريكة ذهبية.. لقد ألقت بنفسها فى ظلام الحيرة المعذبة، لم تجر بنظراتها إلا فى اتجاه واحد.. العالم من حولها شاسع، والناس بالملايين، والطرق عديدة.. لكنها حصرت نفسها فى موقع بعينها تأدبًا وحشمة، أو هكذا خيل إليها.. ظنت أنها حسمت الأمور من قديم، لكنه كان وهمًا ذلك الظن..

ووضعت للحب مواصفات خاصة من صنع شاعرها، لكن تلك الصفات تبددت.. وذابت في حرارة شمس الحقيقة.. فهمت الإخلاص معنى محدداً، واعتبرت الوفاء قيداً حديدياً لا فكاك منه، حتى ولو كان الوفاء لمن ليس محلاً لذلك.. افتخرت بالحرية على الرغم من أنها صنعت لنفسها أغلالاً من ذهب زائف..

قال أخوها سعد على خروج رشدي وبقاء عادل في المعتقل:

- «الحكومة لا تخرج من مأزق إلا لتقع في مأزق جديد، وهي تعاني من ضعف وحيرة شديدة، لكنها تتصنع القوة.. إنه وهم القوة.. لهذا فهم يعتقلون ويفرجون.. أليس هذا في حد ذاته دليل الانهيار؟؟».

أما طبيب النساء والولادة زوج شقيقتها الصيدلانية سميرة، فقد رد وهو يتثاءب:

- «عدد الولادات في ازدياد برغم أقراص منع الحمل، وحملات التوعية، ونسبة الأطفال الذين يولدون مشوهين

فى تزايد أيضًا . . وأنا أجرى حاليًا دراسة دقيقة عن سبب ذلك . . ترى هل هناك علاقة بين سوء الأحوال العامة وما يحدث فى غرفة التوليد؟؟» .

ضحك المقدم زوج رندة، وقال :

- «يا سميرة خذى زوجك إلى السرير قبل أن ينبعث غطيطه . . » .

رد الدكتور :

- «صدقت، فأنا لم أنم طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية سوى ساعتين . . إننى فى حاجة ماسة إلى شهرين أو ثلاثة فى المعتقل حتى أستريح . . وأنام . . النوم لذيذ جدًا . . » .

وضج الجميع بالضحك، وقال المقدم :

- «لو حدث ذلك لطردونى من الخدمة» .

- «لماذا؟؟» .

- «لأنك متزوج من شقيقة زوجتى . . » .

قال الدكتور وهو يغالب النوم :

- «هذه حالة «تشوه سياسى» لا تقل جسامة عن تشوه الأطفال المولودين حديثًا . . » .

وأخذت سميرة بيد زوجها ، ودخلا عرفة النوم . .

وعلقت الدكتور فضيلة قائلة :

- «إن أفضل شيء يفعله الإنسان فى هذه الأيام هو أن يتزوج . . » .

هتف المقدم قائلاً :

- «هكذا دون خجل . . » .

- «إنه تصرف منطقى . . » .

- «إذن فلنزفك إليه فى المعتقل . . » .

امتقع وجهها ، وقالت :

- «أنا لم أبت فى هذا الموضوع بعد» .

مال عليها مداعبًا :

- «ومتى تبتين؟؟» .

- «لست فى عجلة من أمرى؟؟» .

- «أتناقضين نفسك يا فضيلة؟؟ ثم هل من اللائق أن تتخلى عن الدكتور عادل وهو فى محنته؟؟» .

أغضبها قوله الأخير، وكادت تنفجر ولكنها تمالكت أعصابها :

- «ليس الأمر على هذا النحو، لو كنت مقتنعة به الآن لانتظرته إلى الأبد . . التضحية لا بد أن تكون على أساس سليم . .» .

عاد المقدم يقول مخاطبًا الجالسين :

- «أختكم تتمرد . . إنها ثورة ضد الثورة . . استحلفك بالله من هو «الحليف» الجديد . . المرأة لا تتخلى عن رجل إلا إذا وجدت البديل . .» .

وجاءت كلمات فضيلة الهادئة كالدوى الهائل :

- «رشدى القصاص . .» .

وقدم أبوها من غرفته القريبة، وقطع الصمت والذهول قائلاً:

- «هذا ما توقعته.. نِعْمَ مَنْ اخترت يا فضيلة..».

ضرب المقدم كفًا بكف، وقال:

- «إنه انقلاب أبيض..».

وقالت سميرة:

- «سبحان مغير الأحوال».

أما الصحفى سعد، فقد قال:

- «إن الإنسان عبارة عن مجموعة من الحالات النفسية المتغيرة والتغير لا يأتى من فراغ، ثم إنه ليس عشوائيًا.. إننى أفهم جيدًا الدوافع التى حملت فضيلة على ذلك.. ولهذا فأنا أبصم بالعشرة..».

تهلل وجه فضيلة فرحًا:

- «فعلاً.. إنه لدى من الدوافع والأسباب التى جعلتنى

أتخذ هذا القرار . . وليس فى ذلك خداع أو خيانة . . إنه أولاً وأخيرًا صدق مع النفس . . » .

أشعل المقدم سيجارة، وأردف :

- «لا يهم . . إننا نجد دائمًا المبررات لتصرفاتنا . . ولكل إنسان مطلق الحرية فى اتخاذ القرار الذى يريد، وخاصة فى أمور شخصية كهذه . . » .

قال الشيخ علام العيسوى وهو لا يستطيع كتمان ارتياحه :

- «لقد تمت الموافقة بالإجماع . . ولهذا فإن القرار يكتسب الشرعية الحقيقية فى مجلس الأسرة الموقر . . » .

وقالت فضيلة ضاحكة :

- «إن موافقة رئيس المجلس يعطى للقرار ثقلاً مميزًا . . » .

●●●

نفضت فضيلة عن كاهلها أعباء قديمة طالما أرهقتها، وشعرت بطعم الراحة الحقيقية، ومن ثم استطاعت أن تستغرق فى النوم بسرعة عجيبة . .



سمعت الدكتور فضيلة ضجة غير عادية وهى جالسة فى مكتبها بقسم الباثولوجيا فى الصباح أصوات وضحكات . . وزغردة، خرجت لترى ما يجرى بدافع الفضول البحت، وجدت جمهرة من الأطباء والفنيين والفراشين، رجالاً ونساءً، واستطاعت أن تتبين فى الوسط الدكتور رشدى، دق قلبها كما لم يدق من قبل، كان يبتسم ابتسامته الصافية الرائقة، عيناه كأنها ازدادتا اتساعًا وعمقًا ونقاءً، وبدا وجهه هو الآخر أكثر بياضًا وطهرًا، غرق رشدى فى عالم من الأذرع والقبلات والعناق . . «ذلك هو الحب الحقيقى . . حب الناس»، وقدم نحو فضيلة فى حياء واحتشام رجل . . إنه أكثر نحافة ووسامة من ذى قبل، وجاءها صوته نديًا رقراقًا :

- «السلام عليكم . . » .

هزت رأسها مرحبة ، كان واضحًا أنها سعيدة بصورة كبيرة شاملة ، قالت عيناها الباسمتان ما عجز لسانها عن النطق به ، لجأت إلى يديها تشبكهما وتعبث بأصابعها هروبًا من حرج الموقف ، وكأنها مراهقة فى سن السادسة عشرة ، وقفت وسط الزحام والضجيج والفرح يغمرها من قمة الرأس إلى القدم ، تلك مشاعر عجيبة بهجة تحس بها- على هذه الصورة- لأول مرة فى حياتها ، تمنت هى الأخرى أن تطلق زغرودة ، لكن ما حاجتها إلى ذلك وفى قلبها مهرجان من الأفراح القدسية الرائعة . .

همست :

- «كان لغيبتك أثر كبير . . لقد تركت فراغًا لم يملئه أحد . . » .

خفض رأسه ، وتمتم :

- «الحمد لله . . لقد عدنا . . وسعادتى بلقائكم تفوق التصور . . » .

ورئيس القسم برغم تحفظه وجمود ملامحه، كان هو الآخر يرحب به فى حرارة، وتمتم:

- «علمتنى الحياة أن أكون حريصًا، وأن أتفرغ لرسالة العلم. . أعرف أنك كنت مثال الطالب المجتهد. . لكن لا حيلة لنا فيما جرى. . ».

قال الدكتور رشدى:

- «تلك سنة الحياة، وأنا أمضى فى طريقى وعينى إلى الأمام. . لا جدوى من البكاء على الإطلاق، ولكن يبقى أن نزيل الأطلال، ونقيم مكانها بناءً جديداً. . ».

غير أن رئيس القسم فاجأه بسؤال:

- «هل ستذهب إلى مقر عملك الجديد بوزارة الصحة؟؟».

- «نعم. . لكن هناك محاولات تبذل للعودة إلى مكانى بقسم الباثولوجيا. . ».

هز رأسه، وقال فى أبوة حانية:

- «تعلم أنك من أحب الأطباء إلى قلبى لكنى ملتزم بالأوامر الصادرة بخصوصك، وليس فى مقدورى تغييرها . . إننى أعرف حدودى جيداً . . ».

ولم يتوان رشدى عن تقديم التماس لمدير المباحث العامة ووزارة الداخلية، طالبًا إلغاء نقله، وحجته فى ذلك عدم ثبوت أى اتهام ضده، ثم الإفراج عنه، وهو الدليل الحى على براءته، وبعد جهود مضنية وافقوا على أن يعود إلى قسم الباثولوجيا، وطمأنوه بأن الإجراءات لن تستغرق أكثر من أسبوعين.

كان رشدى يريد أن يعبر عن مشاعره لفضيلة، لكنه لا يعرف كيف، وبالإضافة إلى ذلك، فإنها فى حكم المخطوبة لعادل، والرسول ﷺ له قول صريح فى ذلك: «**لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه**»، لهذا آثر الصمت، حتى تنجلى تلك العقبات، ولم تكن فضيلة لتجهل مثل تلك البديهيات، فهى تتذكر أنها رفضت الزواج منه من البداية لارتباطها المبدئى بعادل، كما تعالم أنها فى حكم المخطوبة، وإن لم يقدم لها عادل الشبكة، أو حتى يقرأ

الفاتحة كما جرى العرف، والحمد لله إنها لم تعقد القران حتى الآن، لكنها استطاعت من خلال زوج أختها المقدم أن تخطر عادلاً فى المعتقل بعدم رغبتها فى استمرار الخطبة لأسباب جوهرية لا يمكن التغافل عنها، كانت تعلم أن مثل هذا التصرف منها- وفى هذا الوقت بالذات - شديد الوطأة عليه، أقل ما سيقال: إن حبها كان زيفًا، ووفاءها كان كذبًا، وإنها لم تحم ظهره إبان محنته القاسية. . لكنها كانت على استعداد لأن تفعل أى شىء من أجل عادل إلا الزواج. . واستطاعت فضيلة أن تبرر تصرفاتها لما قيل عن علاقته بنادية عبد الباقى، وإذلاله لنفسه بطريقة مهينة لخدمة أهواء الدكتور زكى فودة، وأفكاره الغريبة عن الناس والحياة والمبادئ، وغرقه فى مستنقع الغواية والوشاية وكتابة التقارير السرية الجائرة. . إن صحيفة الاتهام طويلة، ومن الخطأ الأخلاقى والاجتماعى أن ترتبط برباط الزوجية مع إنسان كهذا. . وهى مصممة على الزواج من رشدى، ولن يتم ذلك إلا إذا أنهت علاقتها مع عادل، فكرت فى الانتظار حتى يخرج من المعتقل، لكن من يعرف موعد خروجه؟؟ كان لا بد أن تفعل برغم الألم الذى تتوقعه له. . حيثما قرأ

رسالتها في المعتقل. . كان جالسًا في مكتب المدير، ومعهما المقدم زوج رندة علام. . لقد اشتد شحوب وجه عادل، وتقاطر العرق على جبينه. . لكنه تمالك نفسه أمام الرجلين، لقد بقيت لديه ثمالة من كبرياء، أيبكي مرة أخرى كما تبكي النساء؟؟ مستحيل. . لقد فقد الثقة في كل شيء. . في الحكومة. . والمرأة. . والأصدقاء. . فلماذا يحزن؟؟

ووقف في شجاعة، وقال بصوت واضح:

- «هذا حقها. . وأنا أحترم رغبتها. . ولقد أحللتها من كل ارتباط».

قام المقدم، وقال:

- «وما قيمة ذلك؟ ليس له ما يبرره، إذ ليس بيننا أي ارتباط رسمي. . ».

- «مجرد شكليات. . ».

وكتب عادل ما أرادوه، ثم قدم الورقة لمأمور المعتقل كي يعتمدها، وانحنى في أدب قائلاً:

- «أهناك أوامر أخرى؟؟».

كان يمشى فى فناء السجن بصعوبة؛ لأن ساقيه لا تكادان تحملانه، بصق على الأرض فى احتقار لكل شىء، هيأ له وهمه أن العالم كله خائن جبان، وأنه مظلوم مقهور. . لم يتذكر شيئًا من جرائمه وانحرافاته. . لكأنما سقط عنه التكليف كما يقال، لم يكن لديه أدنى رغبة فى البقاء مع رفاقه فى حوش السجن للثرثرة أو المشى، ومن ثم قصد لتوه إلى غرفته. . جلس وحيداً، وسرعان ما مال فوق البرشد، وغطى جسده كله بالبطانية، من قمة الرأس إلى أخمص القدم، لم يكن يريد أن يرى أحدًا، أو يراه أحد، وتحت الغطاء انتابته موجة من الانفعال اليائس الغاضب، وانهمرت دموعه، وأخذ جسده ينتفض، وحينما قدم رفاقه ووجدوه على هذا الوضع، تجرأ أحدهم وسحب الغطاء. . كانت الدموع تبلل وجهه المحتقن الملتهب، صرخ فى جنون:

- «دعونى وشأنى أيها الحمقى. .».

قال أحدهم:

- «أكل هذا من أجل امرأة . . النساء كثيرات . . وأنت رجل موقف . . » .

نظر إليهم في دهشة قائلاً :

- «هل عرفتم؟؟» .

- «نعم . . أخبرنا السجان بكل شيء . . » .

قال وهو ينشج بصوت عال :

- «لقد فقدت العالم . . وفقدت نفسي . . » .

جثا أحدهم بالقرب منه ، وأمسك بخناقه قائلاً وهو يهزه :

- «فضيلة علام العيسوي لم تكن تصلح لك وأنت لا تصلح لها . . وقد تعجب حينما تقول لك إن امرأة مثل نادية عبد الباقي أنسب لك . . » .

دار بينهم بنظراته المحتقنة في حزن ، وقال :

- «أنتم فسقة لا تعرفون النور . . » .

أخذوا يلهبونه بتقريعاتهم وتأنيباتهم اللاذعة، ويسخرون من أوهامه وحبه الرومانسى الفارغ، وهتف أحدهم قائلاً:

- «الزواج علاقة مادية بحتة.. امرأة ورجل.. وغريزة، وجوع وشبع.. وظمأ ورى.. أهو غير ذلك؟؟».

قال عادل:

- «إنكم لا تدرون ما بى.. إن ما تتحدثون عنه هو حب الحيوانات.. وأنا جربت هذا وذاك.. قلت لكم اتركونى وشأنى، لقد أضعتم منى كل شىء..».

قال أحدهم:

- «ستظل هكذا فى جحيم حتى تودع هذه الخزعبلات والخرافات.. والحب بمعناه الرجعى السلبى لا يصلح للتقدميين..».

●●●

انقذفت أخبار الحرب المفاجئة كبركان نار عاتيًا فى ليل ساكن هادئ، وغطت اللهب السماوات الشاسعة،

وتزاحمت الطائرات فى الآفاق، وهلل المذيع وكبّر، وعربدت البيانات العسكرية الصاخبة.. لقد نشبت المعركة مع إسرائيل، وقوات جيشنا تدق أبواب «تل أبيب».. كانت عواصف الحرب والأنباء أقوى من أى شيء.. ونسى المعتقلون أحزانهم الخاصة.. وقف الدكتور عادل فتوح مبهوراً بأخبار الانتصارات و البيانات الإذاعية وسط زحام المعتقلين وضجيجهم، وهتف بأعلى صوته:

تحيا الثورة..

تحيا مصر..

عاش البطل جمال..

تسقط إسرائيل وأمريكا..

النصر لنا، والموت لأعدائنا..

وحدث هرج ومرج كبيرين، وأخذت صفارات العسكر.. ونادى المأمور بصوت عال:

- «لا مجال للمظاهرات فى المعتقل.. احترموا

النظام. . لا دخل لكم بما يجرى خارج الأسوار. . عودوا جميعًا إلى زنازينكم. . هيّا. . ».

وعاد الصمت من جديد، بعد أن تسلل المعتقلون سراعًا إلى غرفهم، ولم يعد يسمع غير صوت المذيع فى ميكروفونات العنابر، وتمتم عادل فتوح:

- «النصر معناه العفو العام عنا. . ».

ورد أحد الرفاق:

- «روسيا تقف إلى جوارنا. . إن الإفراج بالنسبة لنا أكيد. . أما الإخوان المسلمون، فلن يفرج عن أحد منهم. . ».

قال عادل متسائلاً:

- «لماذا؟».

- «لأنهم عملاء. . ».

- «لا تظلمهم. . ».

- «كيف؟؟ إنهم حرب على روسيا والاشتراكية. . ».

في اليوم التالي خرست أصوات المذيعين وصمتت الميكروفونات، ولم تفتح أبواب الزنازين، لماذا؟؟

قال أحد الرفاق المعتقلين:

- «اعذروا إدارة السجن.. نحن في حالة طوارئ، ومن يدري فقد يحضرون الأسرى الإسرائيليين إلى هنا..».

وسرعان ما تسربت الأنباء المحزنة.. إن بعض المعتقلين من الأطباء، والذين يساعدون طبيب السجن في المستشفى قد أتوا محزونين زائغي النظرات.. إن جيشنا قد تراجع للخط الثاني.. وبعض الفارين وصلوا قناة السويس، والإذاعات الأجنبية تؤكد الهزيمة الكاملة.. وإذاعتنا تكتفي بنشيد «الله أكبر» والحزن يعم الأنحاء.. إنها أكبر هزيمة عرفتها مصر في تاريخها القديم والحديث..

قال الشيوعيين المعتقلين:

- «إن سبب هزيمتنا هو الرجعية وعدم السير على المنهج الاشتراكي بحذافيره..».

وقال أحد الإخوان المسلمين المعتقلين:

- «لقد أهدرنا القرآن وشريعته، وأدمنَّا الظلم، فتخلت عنا السماء.. وهل النصر إلا من عند الله؟؟ ﴿إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].. هذه نصوص إلهية لا مجال لتكذيبها..».

أما عادل فتوح، فقد كان له رأى آخر:

- «لقد فشلت الثورة فى تمييز أصدقائها من أعدائها وأنا الدليل الحى على ذلك.. هذا هو سبب الهزيمة والخراب..».

وكان لأحد السجانة وجهة نظر تقول:

- «حرب!! سلامات يا حرب!! نحن لا نجد ما نأكله..».

ومع ذلك، فإن شعور القهر والحزن يجثم على النفوس، يستوعب فى ذلك المعتقلون وإدارة المعتقل، فالأفق السياسى ملبد بالغيوم، ولا أحد يعرف كيف تنجلى الغمة، وتنجو من تلك الورطة التاريخية المرعبة، وكان هناك بعض الشامتين، لكن لم يستطيعوا الكشف عن

هويتهم بصراحة، فالأمر يتعلق بأمر وطن عريق، وأمة تاريخ ورسالة . .

وسمحت إدارة المعتقل مرة أخرى بفتح الزنازين والخروج إلى الفناء للفسحة والتهوية، كانت المجموعات تمشى هنا وهناك، وعلى الوجوه سمات الهوان والألم . .

كان الوقت مساءً حينما سمعوا الرئيس يعلن عن مسئوليته الكاملة عن الهزيمة، كما يعلن- فى الوقت نفسه- تنحّيه عن حمل المسئولية . .

كان الخبر مزلزلاً بصورة صارخة، لم يتمالك الدكتور نفسه، فهتف فى حماسة- كعادته - معلنًا ترحيبه بقرار النتيجة، وأخذ يكيل السباب والتهم دون تحفظ، وتنحى باللائمة على النظام كله وبعفونته وانحرافه، وأبدى سخطًا بالغًا على الاتحاد السوفيتى، وخيانته، وتواطئه مع الأمريكان، والعرب . .

وانبرى له أحد الرفاق قائلاً :

- «إن الذى تقوله خيانة . . » .

توترت أعصاب عادل، وهتف :

- «أنا خائن؟؟» .

- «بل ومجرم حقير . . » .

وتشابكت الأيدى، وتبدلت الكلمات، وعلا الضجيج والصراخ، وسرعان ما جاء العسكر . . والمأمور . . وأخذوا جميع الرفاق إلى مكاتب التحقيق . . كان المأمور غير راغب فى اتخاذ أية إجراءات رسمية حيال ما حدث، نظراً لظروف الهزيمة، وتوتر الأعصاب، وضيق النفوس، وانشغال أجهزة الأمن بما هو أهم، وخاصة كبريات الأمور التى تتعلق بمصير البلاد فى هذه الظروف الحرجة الدقيقة، لكن رفاق عادل الشيوعيين أصروا على إخطار المباحث العامة، وإجراء تحقيق رسمى كامل فى كل ما قاله عادل . .

كل شىء يتآمر ضد عادل التائه المنحوس، لقد قامت مظاهرات تطالب بإعادة الرئيس المنتخب . . وعاد، وأصبح عادل فى مأزق، واهتمت المباحث بما جرى . . كاد عادل يجن . . إن رفاقه يشهدون ضده، قال فى تذلل :

- «سيدى المحقق. . اعذرنى. . كنت فى حالة نفسية سيئة. . أنتم تعرفون كم أحب الرئيس وأحب الثورة مهما حدث. . سامحونى. . ».

قال المحقق فى برود:

- «قد تغفر لك أى شىء إلا أن تتهم الرئيس فى نزاهته، وتشك فى كفاءته. . وسوف تقدم للمحاكمة. . ».

وقف عادل مبهوتًا، وتمتم:

- «محاكمة!! يا للكارثة!!».

نعم كارثة. . لقد كان اسمك فى كشف الذين سيفرج عنهم هذا الشهر.

يريد المحقق أن يجهز عليه بالندم القاتل. .

دارت به الأرض، وارتمى مغشيًا عليه، وعندما أفاق وجد نفسه فى الحبس الانفرادى، وفى اليوم التالى أخذوه ليلاً إلى سجن أبو زعبل الجديد لتحقيقات نيابة أمن الدولة. . وبعد أن انتهت إجراءات النيابة عاد إلى زنزانته فى حالة من الاكتئاب الشديد. . غمغم بينه وبين نفسه:

- «قد بلغت مرحلة من السوء أصبحت الحياة معها مستحيلة تمامًا . .» .

وثب إلى نافذة عالية وحطم زجاجها، ثم التقط قطعة من الزجاج الحادة، ثم نزل ورفع عينين دامعتين إلى السماء، وقال :

- «لقد ضعت . .» .

ثم انقض فى هستيرية على معصمه وقطع الشريان . . وارتمى على بلاط الزنزانة البارد ينزف . .

كان السجان المناوب قد سمع حركة تحطيم الزجاج، فأخذ يمر على الزنازين ليتفقدها . . ثم رأى عادلاً ملقيًا على البلاط وخيط من الدماء يمتد إلى الباب المصنوع من القضبان الحديدية الصلبة . . فاستغاث بزملائه . . وفتح الباب . . وجروا عادلاً إلى الخارج . . ثم نقلوه فورًا إلى المستشفى . . وأمكن إنقاذه فى الوقت المناسب . .

●●●



تكاد السعادة تطفو وتعلو وتتسع حتى تغمر العالم كله من حوله، لقد كادت تنسيه الليالى السود فى أرض اليأس والكآبة والعذاب، وغمغم رشدى بينه وبين نفسه: «كاذب من زعم أن الحياة مرارة كلها، وواهم من تخيل أنها نعيم دائم» لقد عاد إلى الكلية. . فحمد الله، وعقد قرانه على الدكتورة فضيلة فشعر أن أمنية غالية قد تحققت، ودخل الامتحان ونجح، فتهيأت له أسباب الرضا والاستقرار، وكان محض مصادفة أن تزف إليه عروسه، والقاهرة سابحة فى الظلام بسبب الحرب والغارات الإسرائيلية الضارية، لكن يكفيه أن فضيلة كانت تتألق كالبدر فى ليلة التمام، كان متوجسًا خيفة من الأحداث الجسام، مشفقًا على مستقبل

وطنه، ولهذا فكر فى تأجيل الزفاف، لكن الشيخ الجليل علام العيسوى قال:

- «امضوا على بركة الله.. النيل يتدفق، والأرض تنبت الزرع، والأطفال يولدون، والناس يأكلون ويشربون، وموكب الحياة لا يتوقف.. فلتكملوا نصف دينكم يا أبنائى.. حاربوا وتعلموا.. وتناسلوا.. واعلموا.. كل ذلك فى طاعة الله..».

كانت «رندة علام» تشارك فى الفرح شاردة مرتكبة، لقد ذهب زوجها المقدم أحمد إلى الميدان، وكانت تتمنى أن يكون معهم فى هذا اليوم، لكنه ذهب فجأة دون وداع، لقد أخبرها فى التليفون أنه ذاهب، وطلب منها ومن أبيها الدعاء بالتوفيق والنصر، وكان طبيب النساء زوج أختها سميرة خارج البيت بسبب حالة ولادة متعسرة جداً، فلم يتح له المشاركة فى الفرح، ومما لفت الأنظار قدوم الحكيمة نادية عبد الباقى دون دعوة، لكن فضيلة رحبت بها، وأغدقت عليها شتى المجاملات..

وحضر الحفل أيضًا العاملون فى قسم الباثولوجيا، وعلى رأسهم الأستاذ رئيس القسم، كان الجميع منهمكون فى الحديث عن الحرب والسياسة، وكان بعضهم يحمل «راديو ترانسستور» لمتابعة ما يجد من أبناء من الإذاعات الأجنبية، وكانوا بين مبالغ فى التفاؤل ومغرق فى التشاؤم، فالأنباء متضاربة، الإذاعة المصرية تتحدث عن ضربات موفقة لقواتنا، وتكبيد العدو خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات، وخاصة الطائرات، وإذاعة إسرائيل ولندن وصوت أمريكا تؤكدون على انحياز الإعلام العالمى لجانب إسرائيل، ومن ثم يكون التشكك فى كل الأنباء الواردة منه.

أصبحا معًا وحيدين..

رشدى وفضيلة..

قال وأغنية الفرح تنساب من عينيه الواسعتين:

- «أمنية طالما حلمت بها..».

خفضت رأسها فى حياء وتمتمت:

- «لقد تحققت أحلى أحلامى . . » .

عاد يقول :

- «أيام المعتقل زادت من اشتعال أشواقى . كنت واثقًا أن أمرًا ما سيحدث . . طالما كنت أراك فى منامى ! ! كنت أسابق الزمن . . وأتخيل . . وأتخيل . . أشياء كثيرة لا تعد ولا تحصى وقد أصبح الحلم حقيقة . . » .

أمسكت بيده وضمتها إلى صدرها فى حب ، وقالت :

- «كانت تراودنى الهواجس والكوابيس . . خفت لا تعود إلينا . . شعرت أنهم اختطفوا قلبى حينما اختطفوك . . ومن خلال إحساسى العميق بالألم تشكل موقفى الجديد . . أدركت أنك على حق ، وهم يوغلون فى الباطل . . والموقف يعنى الإيمان بشىء مهما كلفنى ذلك من تضحيات . . وسواء تزوجنا أم لم نتزوج . . لقد عانيت الكثير من التوتر والقلق والحيرة . . يا لها من أيام . . النار تنفى الشوائب الخبيثة . . الإنسان لا يولد مرة واحدة . . قد يولد مرة ومرة . . » .

ابتسم رشدى، وقال:

- «إن أستاذى الشيخ علام ترك بصماته على أفكارك..».

قالت وهى سابحة بنظراتها فى عطر الغرفة ونورها:

- «فى عالم صفاته تعلمت الحرية..».

رد فى سعادة:

- «وعلى ضوء كلماته الصادقة عرفت الطريق..».

وفتح ذراعيه..

وفتحت ذراعيها..

لم يقضيا من شهر العسل سوى أيام أربعة، وكان استدعاؤهما على عجل، لقد اكتظ القصر العينى بالجرحى.. تحطمت أجنحة الآمال العريضة فى السماء، وسقطت على أرض سيناء الواسعة، وارعدت الديار بأخبار مؤسفة مؤيسة.. وهام الناس فى الطرقات كاليتامى.

قال سعد علام الصحفى:

- «حلفاؤنا الروس لا أمل لهم سوى وقف المعركة . . سلاح الطيران انتهى . . وجيشنا تبدد . . ومعداتنا الحربية غنمها العدو . . » .

وحينما أعلنت تنحية الرئيس، قال الشيخ علام العيسوى :

- «عندما انهزم المسلمون يوم «أحد» . . لم يفروا . . لقد جمعوا حشودهم فى اليوم التالى، وطاردوا جيوش مكة . . تصوروا كيف أن المنهزمين يطاردون المنتصرين ! ! » .

قال ولده سعد :

- «كان ذلك أيام المعجزات . . » .

- «ليست معجزات يا ولدى . . ولكنها إرادة المؤمن . . » .

- «المؤمن؟؟ لقد عزلوه . . وطاردوه . . ولم يبق إلا الحثالة . . » .

وصمت سعد برهة، ثم استطرد :

- «هزمتنا الخطب الرنانة، والشعارات الجوفاء، والكبرياء الفارغة . . ومات عشرات الآلاف على رمال سيناء . . مَنْ المسئول؟؟ . . » .

قال أبوه فى هدوء :

- «نحن . . » .

وقال طبيب النساء زوج سميرة وهو يتثاءب :

- «كانت ولادة متعسرة . . يا إلهى كم تتعذب النساء ! ! لكن الله سلم ، وأخرجت الجنين حيًا . . ولم يحدث للأم أية مضاعفات خطيرة . . أنا لا أعرف سببًا علميًا لكثرة الولادات المتعسرة فى هذه الأيام . . » .

قال سعد فى سخرية :

- «الدكتاتورية . . » .

ضحك الشيخ علام فى حرارة ، وقال :

- «قد تكون الحالة النفسية السيئة وراء ذلك» .

هز طبيب النساء كتفيه قائلاً :

- «ربما . . » .

وأغمض الشيخ علام عينيه قائلاً :

- ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] .

وغرقت البلاد فى طوفان من اليأس والنكات السياسية، وكان سعد حريصًا على جمع تلك النكات، معتقدًا أنها هى المعبر الحقيقى والوحيد عن رأى الشعب، بصرف النظر عن مصدرها، سواء أكان الحشاشون، أو المعارضون السياسيون، أو الطابور الخامس للاستعمار، وكان سعد يتمنى إن ينشر هذه النكات فى كتاب- باعتبارها وثيقة تاريخية مهمة- لكنه كان يعلم علم اليقين أن الرقابة لا تسمح بذلك، بل قد يقدمونه للمحاكمة بسببها، وهو صحفى يعرف الكثير من خبايا الأمور.

وتساءل الشيخ علام:

- «ألن يفرجوا عن المعتقلين؟؟ اعتقد أن الوقت مناسب لذلك جدًا، حتى يتحرك الشعب صفا واحدا لتحرير سيناء، ومحو آثار الهزيمة..».

قال سعد فى مرارة:

- «كلا يا أبى.. لقد اعتقلت مجموعات جديده.. هذا بالإضافة إلى معظم قادة الجيش الذين سيقدمون

للمحاكمة . . وكذلك جماعة المشير عامر القائد العام للقوات المسلحة . . ».

قال الأب :

- «إذن لا تغيير يذكر . . النظام هو النظام . . ».

على الرغم من جو الوجوم والكآبة التى تجثم على البلاد ، إلا أن الأمل لم يندثر ، قد تمر سنوات طافحة بالمرارة والفقر والنكد ، لكن الفجر يشرق دائمًا ، وإن طال الليل البهيم ، وكان رشدى يقول لفضيلة : إن القضية ليست قضية سلطة غاشمة جاهلة ، ولكنها أمة ومستقبلها . . وليس هناك بديل للبدء من جديد ، الجراح لن تبقى نازفة ملوثة ، لا بد من ضمادها وعلاجها ، والصبر طيب ، والنجاة فى العمل الجاد . .

وكان الشيخ علام يردد دائمًا أن الهزيمة ليست هزيمة رجال وسلاح ، بقدر ما هى انهيار أخلاقى . . الناس فى حاجة إلى مثاليات وقدوة صالحة ، إن المثل القائمة نماذج منحطة ، والقدوة غير مقنعة . . والعلم الحديث ليس مجرد

شعارات ومؤسسات فوضوية، ولكنه عمل وإنتاج . .
والعدالة الاجتماعية لا تكون فى القمع والإرهاب . .
المظلومون والخائفون لا ينتصرون . .

ولم تكن فضيلة يائسة، لعل الجنة التى تنعم فى رحابها
قد روت روحها بأريج الأمل والثقة، واليوم هزيمة وغداً
نصر ومع ذلك فقد لاحظت شيئًا من الوجوم على وجه
زوجها رشدى القصاص، فقالت ووجهها البرىء يتألق
نضارة وحيوية وسعادة :

- «ما بك؟» .

تمتم قلقًا :

- «يبدو أنهم يراقبوننى . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «إننى أعرف المخبرين . . » .

- «هؤلاء الأغبياء! ! هل هذا وقته؟؟» .

- «العقول الفجة مازالت فى المستنقع . . » .

قالت فضيلة فى شىء من الضيق :

- «ليسوا أقوى من الله . . » .

- «ليتهم يفهموا ذلك . . » .

قالت فضيلة والدهشة ترتسم عى وجهها :

- «لماذا يفكرون على هذا النحو الأحمق؟؟» .

- «لأنهم لم يجدوا من يؤدبهم أو يحاسبهم . . » .

- طوقت رشدى بذراعيها . . «أنا التى ستؤدبهم . . » .

وتضاحكا . .

قالت :

- «أعددت لك وجبة من الجمبرى الشهى . . ألا تلاحظ أنك سمنت بعد الزواج؟؟» .

قال مشاكسًا :

- «ذلك بسبب حرصى على التمارين الرياضية اليومية» .

- «بل بسبب مهارتى فى الطهى . . » .

●●●

كانت فضيلة- ومعها رشدى- فى الطريق لزيارة الأب، وما إن دقت جرس الباب حتى سمعت أنينًا ينبعث من الداخل، فتح الخادم الباب، وهتفت:

- «ماذا هناك؟؟».

لم تنتظر الجواب، اتجهت صوب الدرج، وصعدت مسرعة، ورشدى فى إثرها، وحينما توسطت صالة المعيشة فى الدور العلوى رأت أختها رندة غارقة فى السواد وحولها أطفالها، لم تستطع فضيلة أن تفتح فمها بكلمة، كان أبوها جالسًا على كنبته المعهودة، والمسبحة فى يده، والدموع تسيل على وجهه.

صرخت رندة:

-« أحمد مات.. مات يا فضيلة..».

أربدت سماء الأفراح، غشيتها موجة من الذهول، انفرطت دموعها كأنها مخزونة منذ آلاف السنين.. مات أحمد؟؟ هل هذا معقول؟؟ كان يجلس هنا منذ أيام قليلة.. فى ذلك الركن الغربى بالذات.. هذا مقعده..

وتلك صورته والنجوم الذهبية على كتفيه . . مات؟؟ أهكذا بسرعة . . وجاءها صوت رندة مرة أخرى :

- «قتلوه . . المجرمون قتلوه . . لم يفكر في الموت أبدًا . . ولا أنا . . » .

- «الحزن الصامت قاتل . . تكلمى يا حبيبتى . . قولى أى شيء يا رندة . . اسخطى . . العنى . . أطلقى الرصاص إن استطعت . . إنهم قتلوه . . إنهم سرقوا نور حياته . . ويتموا أطفاله . . وتركوك أرملة فى وقت مبكر . . لكن الحزن الصامت يخرسنى يا حبيبتى، وأنا أختك، وأعرف النار التى تشتعل فى قلبك . . لتنس الذكريات الحلوة يا حبيبتى فقد ماتت . . هم الذين اغتالوا الحب والذكريات . . الحزن الصامت يحرقنى يا حبيبتى، وأنا لا أعرف كيف أخفف عنك . . لا أعرف كيف أسوق الكلمات . . هل تحمل كلمات عزائى لك معنى؟؟ هل يجدى قول عند الموت . . الموت هو التعبير الأقوى . . لن يحتاج لتعبير آخر . . الحزن الصامت يتفجر . . ينداح لهيبًا فى قلبى . . بركان يغرق كل الدنيا . .

لن أتكلم . . لن أتكلم يا رندة . . فسأبقى صامتة فى حزنى . . صامدة فى حزنى . . لا أملك إلا الدمع الأخرس . . ».

ودارت بفضيلة الأرض ، وأظلمت الأضواء فى عينيها ، ثم سقطت على الأرض مغشيًا عليها . .

التفوا حولها محاولين إفاقتها . . حملوها إلى سرير أبيها . . زوجها رشدى الطبيب يقف مذهولاً وكأنه نسى الطب . . أما زوج أختها سميرة طبيب النساء والولادة ، فقد تمالك أعصابه ، وأخذ يفحصها بتؤدة ودقة ، وأحضر من حقيبته محقنًا وعقارًا . . وبعد دقائق فتحت عينيها المحتقنتين . .

قال طبيب النساء لرشدى :

- «لا تدعها تترك السرير الآن ، والأفضل أن تأخذ لها عطلة مرضية . . اعتن بها أكثر ؛ لأنها حامل . . لم يستطع سعد علام أن يحجز مساحة فى الصحيفة التى تعمل بها لكتابة نعى للمقدم أحمد ؛ لأن الأوامر كانت صريحة بمنع ذلك ، كان سعد يجلس مغتمًا إلى جوار أخته رندة ، وعلى

وجهه ملامح حزن ثقيل، ومن آن لآخر ينظر إلى أبيه الشيخ الذى تتقاطر دموعه فى صمت، وانتهز سعد فرصة خروج رندة لأمر ما، وخطا صوب أبيه، وقال فى انفعال مكتوم:

- «إن دموعك يا أبى تزلزلنى..».

قال الشيخ بصوت مخضل بالدموع:

- «أنا لا أبكى من أجله، لقد أفضى شهيداً إلى رب كريم، فى مكان أمين.. لكنى أبكى من أجلها.. أبكى عذاب الأحياء..».

قال سعد:

- «رندة مؤمنة..».

هز الشيخ رأسه قائلاً:

- «أعلم.. أعلم..».

لكن دموعه ما فتئت تتساقط..

●●●



هدأت الدوامات العاصفة المخيفة، وخشع الرعب المدلهم، إن درجة التوتر النفسى العالية لدى الدكتور عادل فتوح قد خفت حدتها إلى حد كبير حين يتعاظم اليأس يتهاوى الإنسان إلى موقع لا اهتمام فيه بموت أو حياة، ذلك ترجمان العجز الشامل.. «ليتنى عشت مثل أبى «فتوح»..

كان بسيطًا غاية البساطة.. لا يأكل أكثر من نوع أو نوعين، ولا يلبس إلا القطع الثلاث صيفًا وشتاء، ورحلته اليومية لا تخرج عن الذهاب إلى الغيط أو المسجد، كان هادئًا مستقرًا برغم الفقر والحاجة.. وحينما مات لم يشغل معارفه إلا بقضية حمله إلى مقره الأخير.. واستمرت فى القبر رحلة الهدوء والاستقرار.. رحمه الله لم يهتف لأحد، ولم يتكاثر عليه الزبانية ليأخذوه إلى المعتقل،

ويشووا جلده بالسياط . . لم يشرب الويسكى ، ولم يأكل الجمبرى طول حياته . . لم يدخل «جنة» نادية عبد الباقى ، كان بيته الطينى الصغير هو جنته . . لا . . لا . . الجنة كانت فى قلبه ، وجنة القلب تتصل مباشرة بجنة الله فى الآخرة . . قال لى ذات يوم : القناعة كنز لا يفنى . . ضحكت ! !

هذه كلمات قديمة يرددها السذج المقهورون . . سلام عليك يا أبى فى الآخرين . . وكان عادل حسن الحظ إذ تقرر عدم تقديمه للمحاكمة ، والاكتفاء بمد اعتقاله فترة أخرى لأجل غير مسمى ، وخرج رفاقه الشيوعيون إلى عالم الحرية كما توقعوا . . لقد قالوا لعادل : إن الوضع بعد الهزيمة يفرض على الحكومة إن تزيد من تحسين وتطوير علاقتها مع الروس حتى يحصلوا على المعونة والسلاح لاسترجاع سيناء ، وإصلاح ما فسد ، وكنتيجة حتمية لهذا التصور ، فلا بد من الإفراج عن بعض الشيوعيين المعتقلين ، وإعادتهم إلى وظائفهم ، وإلى مراكزهم فى المنظمة والحزب . . لقد اعتصرته الحسرة يوم غادروا المعتقل . . كاد أن يتشبث بأذيالهم ، ويقول : خذونى معكم رحمة بى . . لكنه لو فعل

ذلك فسوف يسخرون منه . . لقد اصطلح معهم قبل أن يخرجوا . .

«ومن نكدِ الدنيا على الحرّ أن يرى

له عدواً ما من صداقته بد»

كما قال الشاعر القديم . . لقد علمته الأحداث القاسية كيف يحسن علاقته مع جميع من يعرف . . نعم . . سواء أكان يكرههم أو يحبهم . . لا فرق . . الأحداث تولد المواقف . . ذهبت فضيلة إلى الأبد . . أخذها «الغراب» وطار، كما كانت تقول جدتى فى حكاياتها الخرافية . . انتصر رشدى القصاص، هزمت أنا . . الهزيمة هى السمة الغالبة فى هذا العصر . . عندما أعود إلى الكلية مرة أخرى فسأجد دنيا غير الدنيا، وعندئذ لن أفكر فى شىء سوى أن أتعلم وأعيش . . يكفى أن أعيش، وسحقًا لكل مبادئ العالم، شرقًا وغربًا، أنا لن أعتب على فضيلة برغم أساى الخالد . . لو سألتنى اليوم: «هل أنت مذنب» لقلت لها على الفور: «نعم» . . لقد حاولت أن أنتصر بالكذب والخديعة

والخيانة . . إننى أذكر بيتًا قديمًا من شعر عنترة العبسى . . أذكره جيدًا . . كان يقول :

ولا عـــــتبٌ علىَّ ولا مـــــلامُ

إذا أصلحتُ حـــالى بالفـــســـادِ

وأنا حـاولت تحقيق النجـاح بأبشع الوسـائل فـقـد كل شىء . .

أطلق عادل لحيته ، واعتزل كل من فى المعتقل ، وقرر أن يكمل رحلة الحياة وحده ، توسل إلى طبيب السجن أن يعيره بعض الكتب الطبيـة فى الجـراحـة ، وعلى الرغم من أن اللوائح لا تسمح بذلك ، إلا أن الطبيب تعطف عليه ، ونقله إلى المستشفى ليقيم فيها تحت رعايته ، مدعيًا أنه مريض ، ويحتاج إلى عناية خاصة ، وأدوية كل ست ساعات ، ثم قدم له الكتب العلمية التى طلبها . . كانت مستشفى السجن جيدة التهوية ، حسنة الفراش ، ومتميزة فى أنواع الغذاء التى تقدم للمرضى المعتقلين ، ووجد عادل بالمستشفى نخبة من المثقفين والأغنياء الموصى عليهم .

والحقيقة أن طبيب السجن لعب دوراً كبيراً فيما يتعلق بتحسين صورة عادل فتوح لدى رجال المباحث العامة، وقدم عنه تقديراً جيداً، وأوعز إلى عادل أن يكتب بعض الالتماسات، ويبدى فيها إيمانه بالثورة وزعيمها، واستعداده للتضحية الكاملة من أجل أداء واجبه الوطنى فى إطار ذلك المفهوم..

وفى هذه الأثناء قررت الحكومة الإفراج عن عدد من الدفعات تخفيفاً للأمة، واستعداداً لجولة جديدة مع إسرائيل..

وفى يوم مشهود لا ينساه عادل أبداً، جاءه طبيب السجن مستبشراً، وهمس فى أذنه قائلاً:

- «سوف تخرج بعد أربعة أيام.. لقد قرأت اسمك فى كشوف المفرج عنهم بنفسى..».

لم يستطع عادل أن يكتم فرحته، فانقض على طبيب السجن تقبيلاً واحتضاناً، والدموع تنهمر من عينيه.. لقد دبت الحياة فى الكيان المحتضر.. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢] كادت تتحول الفرحة إلى لوثة.. لكن الطبيب قال في جد:

- «تماسك.. الأمر سرى للغاية..».

سوف ينام لأول مرة سعيدًا منذ فترة طويلة، لكن كيف ينام؟؟ تحول ضيق الحياة إلى امتداد فسيح، وشرد خياله إلى العالم الرحب.. ما أروع الزحام والعمل والحياة.. نشوة كبرى تهزه هزًا.. إنه يغنى بصوت خفيض.. ويعزف بفمه مقطوعات موسيقية هائمة دون قواعد، وفي الحمام أخذ يرقص.. «هل جننت يا عادل؟ ما هكذا يفعل الناس المحترمون.. كن وقورًا عاقلاً».

●●●

ذهل حينما رأى «نادية عبد الباقي» تنتظره في وزارة الداخلية يوم الإفراج عنه، وما الذى أتى بها؟؟ كيف عرفت؟؟ لقد قرر من قبل أن يتصالح مع كل الناس.. شعور طيب أن تفكر فيّ وتأتى لاستقبالى.. قالت:

- «أجر.. وعافية..».

هز رأسه دون أن يجيب . .

صحبته إلى الخارج ، كانت سيارتها قابعة فى مكان قريب .

تمتمت :

- «السجن للرجال . . » .

قال فى شرود :

- «من الصعب أن يظل الإنسان متماسكًا فى هذا المكان الرهيب . . » .

أدارت المحرك . . قال :

- «إلى أين؟؟» .

قالت وهى تتحرك بالسيارة إلى عرض الشارع :

- «لقد استولوا على شقتك بعد اعتقالك . . » .

قال فى دهشة :

- «من فعل ذلك؟؟» .

- «الذين سهلوا لك أمر الحصول عليها فى البداية هم الذين أخذوها . . وماذا فى ذلك؟؟» .

هتف فى حنق :

- «وأين أذهب؟؟» .

- «أنت ضيفى حتى تتضح الأمور . . الشقة يمكن تعويضها . . المهم أنك خرجت سليمًا معافى . . » .

وقهقهت قائلة :

- «ألا تحب الولوج إلى جنتى مرة أخرى؟؟ كنت أحسبك متشوقًا إليها ! ! » .

اقشعر بدنه . . شعور غامض غلاّب يهز جسده . . شعر بشىء يشبه الدوار . . حاول أن يقاوم . . صرخ :

- «قفى ! ! » .

- «لماذا؟؟» .

- «أريد أن أنزل هنا . . » .

- «هل ترفض مأدبتى التى أعددتها لك . . تستطيع أن تأكل وتنصرف . . ».

غمغم فى حيرة :

- «لقد قررت أن أغير كل شىء . . ».

قالت وهى تدور بالسيارة عند أحد المنعطفات :

- «التغيير لا يأتى بقرار، وهو عملية شاقة فى هذه الأيام، هل تصورت أن الهزيمة غيرت شيئًا؟؟ أشياء تافهة لا معنى لها . . كل شىء تقريبًا على حاله . . تستطيع أن تقول : إن هناك إعادة ترتيب فى أمور فرعية . . هل تحب أن تسكن فى فندق؟ شقتك الصغيرة القديمة لا تصلح لرجل فى مركزك، والعنكبوت يعشش فيها . . ».

وأضافت ضاحكة :

-« هل أصبحت تعاف جنتى لهذا الحد؟؟ إننى لا أفرض عليك شيئًا . . لكن تأكد أننى الوحيدة التى عشت معك مأساتك، بذلت المستحيل للإفراج عنك . . ويوم أن عرفت أنك ستخرج كاد يغمى علىّ من الفرح . . ولهذا أتيت . . هل

أتى لاستقبالك أحد غيرى؟؟ أنا لا أريد منك ثمنًا لإخلاصى . . إننى أفعل ما يمليه علىّ شعورى دون تكلف . . » .

ظل صامتًا يفكر فى كلماتها ، تذكر أحداث الماضى ، وغيبوبة الزمن القديم ، وأحلام المجد الغابر ، تذكر الغابة ، والذئاب ، والصراع ، والأنياب ، والمخالب ، والدماء ، والصراخ .

أيقظته من خواطره قائلة :

- «انظر من حولك عبر النافذة . . انظر كى ترى العالم ، استمتع . . هل تغير شيء؟؟ هل تريد أن تسمع «أم كلثوم» احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة؟؟» .

غدٌ بظهر الغيب واليوم لى

وكم يخيب الظن فى المقبل

ولست بالغافل حتى أرى

جمال دنياى ولا أجتلى..»

كانت تغنى ، وصوتها يلامس أذنيه كأنامل رقيقة مؤثرة رغم تواضع إمكاناتها الفنية . .

صعدا إلى الشقة . . كانت هناك خادمة تقف فى الانتظار ، طلبت منها نادية أن تعد المائدة على عجل ، ثم تنصرف ، شعر بقدر من الهدوء والخدر يسرى فى جسده وهو فى نهاية الأكل ، لم يستطع مقاومة البريق المغرى الذى ينبعث من كأس الويسكى . . الأغانى التى عرفها تنبعث من المسجل . . وعاد يغرق فى الرؤى الحالمة . . مثل الأيام الخوالى . .

استقبلوه فى الكلية بترحاب وتعاطف لم يكن يتخيله ، وأقاموا له «حفلة شاى» محدودة ، وطلبوا منه كلمة ، شكرهم بحرارة وصدق ، وأشار إلى أن ما حدث لم يكن سوى سوء فهم ، وأنه ما زال وفيًا لمبادئه ، مؤمنًا بالثورة ، واثقًا أن جيشنا قادر على محو آثار النكسة . . وأنه سيظل للأبد الجندى المخلص لقيادته . .

وحاول عادل فى الأيا م التالية أن يجدد اتصالاته ، ويلتقى بالمسئولين ، وتكللت مساعيه بالنجاح ، وعاد مرة أخرى إلى المنظمة . . وإلى الحزب . . ليواصل المسيرة . . على الأقل حتى يمكنه أن يعيش . .

وأصبحت إقامته مع نادية عبد الباقى أمرًا مألوفًا، وأصبح يخرج ويدخل دون حرج، تمامًا مثل ما يفعل وهو يحضر اجتماعات المنظمة والحزب دون حرج أيضًا، متناسيًا ما كان من إهانات لحقت به من النظام الذى يخدمه، ومن الرفاق الذين اعتقلوا معه . .

قالت له نادية فى المساء:

- «هل أنت سعيد؟؟» .

قال متنهدًا:

-« هذا زمان الأقنعة . . » .

بدا على وجهها الألم، أدرك أنها أصيبت بخيبة أمل .

قال فى تأكيد:

- «أنت شيء آخر . . إننى أخلع الأقنعة على عتبة بابك . . » .

أشرق وجهها بالفرح، وقالت:

- «كنت واثقة من ذلك» .

وصمتت برهة، ثم عادت تقول:

- «لقد استعدت كل مواقعك القديمة..».

هز رأسه قائلاً:

- «أجل..».

- «وقد يأتي يوم تصبح فيه رئيسًا للقسم.. أو وزيراً للصحة.. ترى هل ستذكرني آنذاك؟؟».

ابتسم في مرارة دون أن يجيب على تساؤلها، ثم قال:

- «لقد يسروا لي أمر الحصول على شقة جديدة فاخرة في مكان ممتاز.. من شقق وزارة الأوقاف.. إيجارها رمزي.. رمزي جدًا.. خمسة جنيهات، مع أنها تحتوي على خمس غرف وصالة ودورتي مياه..».

لم تستطع أن تخفي توترات القلق التي ارتسمت على وجهها، وأوشكت دموعها أن تنفرط، لكنها تماسكت قائلة:

- «هل ستتركني؟».

- «نحن معًا في العمل، ولست بعيدًا عنك خارج العمل».

ألف مرة فكرت فى أن تعرض عليه الزواج، لكنها كانت تعلم أن ذلك مستحيل، عندما عاش معها تلك الأيام المنصرمة خيل إليها أنها كونت أسرة كباقى خلق الله . . لكنه كان وهمًا . . إن الحلم الجميل يتبدد، وبعد يومين أو ثلاثة تعود وحيدة كما كانت . . ومن يدرى قد يجد «فضيلة» أخرى ويتزوجها، وتصبح أيام الأحلام مجرد ذكرى طواها الفنان، وعفى عليها النسيان . .

لعله أدرك ما تفكر فيه . .

ولعلها هى الأخرى أدركت ما يعتمل فى داخله . .

لكنهما لم يجدا شيئًا يقولانه . .

تمت

نجيب الكيلانى

دبى فى ٣١/١٠/١٩٨٥م



كتب المؤلف

روايات:

١- الطريق الطويل .

٢- اليوم الموعود .

٣- فى الظلام .

٤- عذراء القرية .

٥- ليل العبيد .

٦- الربيع العاصف .

٧- الذين يحترقون .

٨- أرض الأنبياء .

٩- النداء الخالد .

١٠- رأس الشيطان .

١١- ليل الخطايا .

١٢- طلائع الفجر.

١٣- حمامة سلام.

١٤- مواكب الأحرار.

١٥- نور الله (جزءان).

١٦- قاتل حمزة.

١٧- دم لفطير صهيون.

١٨- عمر يظهر فى القدس.

١٩- ليالى تركستان.

٢٠- عمالقة الشمال.

٢١- عذراء جاكرتا.

٢٢- الظل الأسود.

٢٣- رحلة إلى الله.

٢٤- رمضان حبيبى.

٢٥- حكاية جاد الله.

٢٦- ليالى السهاد.

٢٧- أميرة الجبل.

٢٨- رجال.. وذئاب.

قصص قصيرة:

٢٩- موعدنا غداً.

٣٠- العالم الضيق.

٣١- عند الرحيل.

٣٢- دموع الأمير (رجال الله).

٣٣- حكايات طبيب.

٣٤- فارس هوازن.

دراسات:

٣٥- إقبال الشاعر الثائر.

٣٦- شوقى فى ركب الخالدين.

٣٧- الطريق إلى اتحاد إسلامى.

٣٨- الإسلامية والمذاهب الأدبية.

٣٩- المجتمع المريض.

٤٠- الإسلام والقوى المضادة.

٤١- حول الدين والدولة.

٤٢- أعداء الإسلامية.

٤٣- تحت راية الإسلام.

٤٤- فى رحاب الطب النبوى.

٤٥- نحن والإسلام.

٤٦- أدب الأطفال فى ضوء الإسلام.

٤٧- حول المسرح الإسلامى.

٤٨- آفاق الأدب الإسلامى.

٤٩- تجربتى فى الأدب الإسلامى.

٥٠- ملامح من حياتى- جزء أول.

٥١- ملامح من حياتى- جزء ثان.

شعر:

٥٢- نحو العلا .

٥٣- أغاني الغرباء .

٥٤- عصر الشهداء .

٥٥- كيف ألقاك .

٥٦- مهاجر .

مسرح:

٥٧- على أسوار دمشق .

●●●

هذا بالإضافة إلى بعض الدراسات الصحية الأخرى .